



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة عباس لغرور - خنشلة -



كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

صورة الشرق

"اليمن، رحلة إلى صنعاء" ل:رينزومانزوني - أنموذجا-

بحث مقدم لقسم اللغة والادب العربي لاستكمال مواد شهادة الماستر

تخصص: أدب عالمي ومقارن

إشراف الدكتور:

شرفي شمس الدين

إعداد الطالبة:

• بركاني أمينة

لجنة المناقشة:

الاسم و اللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
فوزي نجار	أستاذ محاضر-ب-	جامعة عباس لغرور - خنشلة	رئيسا
شرفي شمس الدين	أستاذ محاضر-أ-	جامعة عباس لغرور - خنشلة	مشرفا ومقررا
نبيل قواس	أستاذ محاضر-ب-	جامعة عباس لغرور - خنشلة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2019 - 2020

مقدمة

مقدمة :

تحتل كتب الرحلات بأهمية بالغة في الدراسات المقارنة، لما لها من قيمة ثقافية فهي تعد أهم مكون يعمل على الكشف عن العلاقة القائمة بين الأنا والآخر، كما تمثل برهانا ماديا على الاتصال المباشر والمحسوس بين الناظر والمنظور مؤكدة بطريقة مباشرة أو ضمنية على مدى تقبل الرحالة لأفكار البيئة الجديدة، وقد اهتم بها الناقد المقارني قصد استجلاء صورة الأنا في الكتابات الرحلية وتضح هذا من خلال الجهود الكبيرة والدراسات الساعية التي تحاول تفكيك المدونات الغربية التي سيطرت عليها أقلام الآخر عن الشرق تاريخا وإنسانا وثقافة، والتي كانت في اغلبها متحيزة وعنصرية ومغيبة لثقافتنا جاعلة منها خارج مسار الحركة والتطور.

انطلاقا من كل هذا يأتي هذا البحث، الذي اخترت له عنوان صورة الشرق، اليمن رحلة إلى صنعاء ل: رينزو مانزوني أنموذجا، محاولة الإسهام في الكشف عن صورة الشرق في المدونات الغربية بصفة عامة، و الوقوف على الصورة التي رسمها الأدب الايطالي للشرق بصفة خاصة .

ومن هذا تبادرت إلينا مجموعة من الإشكالات منها:

كيف تجلت صورة الشرق في الأدب الايطالي؟، وما هي ملامح ثقافتنا في عيون الغرب؟

ما هي تمظهرات صورة الإنسان الشرقي؟ - خاصة المرأة العربية ملهمة الرحالة -

كيف تعامل الرحالة مع المعتقدات والعبادات في الشرق؟

كان اختياري لهذا النص دون سواه من النصوص الرحلية هو قلة الاهتمام والدراسة لهذا الرحالة المجهول في أدبنا، وبالإضافة إلى كون هذا النص من النصوص المترجمة إلى العربية مما يتيح مجالا واسعا للبحث خاصة لكوننا لا نملك غير اللغة الأم، وكذا محاولة

رصد أهم القضايا المتعلقة بصورة الشرق في عيون الغربيين .

ولإنجاز هذا البحث، مهدت لدراستي هذه بمدخل مقتضب تناولت فيه أهم المفاهيم المتصلة بعلم الصورة في الأدب المقارن مركزة على المفهوم والنشأة والأنواع، ليأتي بعد ذلك الفصل الأول خصصته للرحلة، مفهوماً، آليات تجنيسها ضمن نطاق علم الأدب، ثم تابعت مسار تطور هذا الفن عند النقاد العرب والغربيين معرجة على طائفة من أعلامها في كلا الأدبيين، وختمت الجزء النظري بتجلية عموميات صورة الشرق عند الأدباء الغربيين .

أما الفصل الثاني فهو فصل تطبيقي وهو غاية البحث خصصته لصورة الشرق والشرقي في كتاب اليمين رحلة إلى صنعاء لـ رينزو مانزوني

عرجت فيه على أهم المحطات التي صورها الرحالة في الشرق، فقد عمل على رصد أهم مكونات الشرق وقدم صورة حية لوقائع وأحداث يومية صادفته أثناء سير رحلته بأسلوب موضوعي خالي من كل نظرة سياسية وبعد إيديولوجي

وقد اعتمدت على مصادر ومراجع مهمة من بينها:

- اليمين رحلة إلى صنعاء لـ : رينزو مانزوني .
- دانييل هنري باجو الأدب المقارن .
- ماجدة حمود مقاربات تطبيقي .
- شوقي ضيف الرحلات .

- Naim Rachid. arabe aux yeux de l'orientalisme littéraire

ولا يخفى أن أسير إلى الصعاب التي اعترضتني في سبيل إنجاز هذا البحث: ندرة المراجع العربية فيما يتعلق بمبحث علم الصورة المقارني، الأهم من هذا وهو الظروف المعيشة جراء حائجة الوباء والتي منعتنا الاتصال بالمكتبات والمرافق العلمية، إضافة إلى صعوبة تطبيق المنهج المقارن على المدونة .

أخيرا لا يفوتني شكر كل من مد لي العون وساعدني على بلوغ غابتي ولو بالكلمة،
واخص بالذكر أستاذي المشرف الذي أفادني بتوجيهاته القيمة وجنبني الكثير من الأغلط
وأنتقدم بشكل خاص لجامعة عباس لغرور التي احتضنت هذا البحث .

مدخل

علم الصور في الأدب المقارن

علم الصورة بين المصطلح والمفهوم

أولاً: مفهوم الصورة

لغة

اصطلاحاً

ثانياً: علم دراسة الصورة - الصوراتية -

النشأة

ثالثاً: أنواع الصورة في الأدب المقارن

الصورة السلبية

الصورة الايجابية

رابعاً: مصادر تشكيل الصورة

1. الكتب

2. الرحلة

خامساً: عناصر تشكيل الصورة الادبية عن الاخر

علم الصورة بين المصطلح و المفهوم

أولاً: مفهوم الصورة

حظي مصطلح الصورة باهتمام بالغ من قبل الدارسين والنقاد في شتى مجالات الإبداع الإنساني، فكل مجال يرى الصورة ويعرفها حسب منظوره لها ما جعل عملية تحديد مفهوم دقيق وصارم لها تتسم بالغموض والنسبية وهذا ما يؤدي إلى اختلاف تعاريفها .

1- لغة:

ذكرت كلمة صورة في كثير من المواضع، ولكنها في معظمها تشير إلى جوهر الشيء وحقيقته، أو هيئته وشكله، الصورة جمع صور، فعلها صور، تصورت الشيء أي توهمته وتخيّلته.

وردت كلمة صورة في القرآن الكريم في عدة مواضع منها قوله تعالى: "الذي خلقك فسواك فعدرك في أي صورة ما شاء ركبك"¹.

جاء في معجم لسان العرب لابن منظور "صورة الفعل أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته، وفي الحديث أتاني الليلة ربي في أحسن صورة"² "صورة الشيء هي رسمه نقلاً وتقريراً أو شبهه ومثاله.³

لا تخرج معاني الصورة عن كونها ظاهر الشيء ومعناه المحسوس والمدرك عن طريق الحواس والعقل.

¹ - القرآن الكريم، سورة الانفطار الآية 7-8

² - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ج7، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص438

³ - ينظر إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغة والأدب، مج1، دار العالم للملايين، بيروت، ط1، ص774

2- اصطلاحا:

يعتبر علم الصورة احد أهم مباحث الأدب المقارن حديثة النشأة، " تهتم بدراسة وتحليل ورصد الصورة الثقافية التي تكونها وتحملها الشعوب عن بعضها البعض في سياق شروط موضوعية معينة"¹.

يعرفها الناقد دانييل هنري باجو* بقوله:

الصورولوجيا **imagologie** هي التعبير الأدبي أو غيره عن انزياح ذي معنى بين نظامين لواقع لثقافي، وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموعة الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي².

تجسد الصورة المقارنة تفاعل بين طرفين متضادين ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين، وتعبّر عن رؤية لصورة الآخر في نظام من التمثلات الاجتماعية التي تفرضها علاقة الأنا بالآخر. وبهذا فالصورة هي إعادة إنتاج واقع ثقافي، يعبر عن فضاء اجتماعي ثقافي وايدولوجي، متضمن أفكار عن الكيفية التي ينظر وفقها المجتمع إلى نفسه (الثقافة المنظورة) وكذلك الكيفية التي يفكر بها الآخر ويحلم بها (الثقافة الناظرة)³.

تقوم الصورة على عنصرين أساسيين وهما الناظر والمنظور يعتبر الأول صاحب الفعل أي القائم بدراسة صورة الآخر وتجليه معانيها، أما الثاني فيمثل موضوع الدراسة.

¹ - زهرة مزوني، دراسة الصورة في الادب المقارن، مجلة الباحث، العدد16، 2007، المدرسة العليا

بوزريعة مبارك ابراهيم ميلي، الجزائر، ص1

* دانييل هنري باجو: دانييل هنري باجو Daniel. H Pageaux من مواليد 1939 بباريس، أستاذ للأدب المقارن وهو متخصص في الآداب الفرنكفونية، له أبحاث صورولوجية مشهود بقيمتها العلمية، استطاعت أن تنبؤا مكانة هامة ضمن المراجع التي لا يستغنى عنها، من أبرز أعماله نذكر: أفق دارسي للأدب المقارن، الصورة الثقافية، من الصورولوجيا إلى النظرية في الأدب المقارن

² - ينظر: دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، دار اتحاد كتاب العرب، دمشق، 1997،

ط1، ص90

³ - ينظر: المرجع نفسه، ص91

ثانيا: علم دراسة الصورة – الصوراتية – imagologie

1- النشأة:

تعد دراسة الصورة الأدبية احد فروع الأدب المقارن وأحدثها، بدأ الاهتمام بهذه الدراسة نتيجة التفاعل الحاصل بين الشعوب في إطار النشاط البشري والرغبة في سيادة سياسة التعايش السلمي حيث يقول الناقد زكي عشاوي في هذا الصدد: "وقد شهد هذا العلم تطورا ملحوظا بسبب رغبة بعض المثقفين في تحقيق مبدأ التعايش السلمي إذ أنهم يبحثون عن دور فاعل في الحياة كي يقاوموا لغة العداة التي قد يشيعها المتعصبون والسياسيون".¹

دخل هذا العلم ضمن اهتمامات الأدب المقارن بغية تحسن الصورة الذهنية المغلوطة عن الشعوب لبعضها البعض، وانفتاح العلاقات العالمية وسلميتها، لأنها تعبر عن اتصال مفتوح ومرآة تعكس سمات الناظر والمنظور.

"وقد لوحظ أن الصورة التي تقدمها الآداب القومية عن الشعوب الأخرى تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول، سواء كان هذا ايجابيا أم سلبيا، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع الناجم عن الصورة العدائية التي يقدمها الأدب القومي ما عن شعب أو شعوب أخرى"².

إن من أهم العناصر التي يجب على كاتب الصورة توخيها هي الموضوعية في مواجهة الآخر، فالصورة من جهة أخرى هي تعبير عن الذات فنحن ندرك ذاتنا من خلال الآخر .
تعتبر الصورة المقارنة عن عرض لواقع ثقافي، يستطيع من خلالها الفرد أو الجماعة الذين شكلوها أن يكتشفوا أو يترجموا الفضاء الفكري والثقافي الذي يتموضعون ضمنه، مع ربطه بالادبولوجية المشكلة لهذا النسق.

¹ محمد زكي عشاوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشروق، القاهرة، ط1، 1994، ص39

² ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط1، 2000، ص109

باعتبار الصورة ترجمة لواقع معين، ففي دراستها ينبغي على الناقد المقارن الإلمام بجموع معارف وعلوم كعلم الاجتماع علم الأعراف، التاريخ، والاستعانة بمصطلحات كل علم.

تعود بدايات هذا الفرع إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث قامت الأديبة الفرنسية مدام دوستيل* **madame de Staël** بزيارة لألمانيا في وقت تصاعد فيه العداء بين الشعبين الفرنسي والألماني.¹

كان نتاج هذه الرحلة كتاب **عن ألمانيا** الذي عبر عن حصيلة معرفية ناتجة عن احتكاكها بالشعب الألماني، كما ساهمت في الكشف عن النسق الثقافي المكون للآخر وإعطاء صورة موضوعية مخالفة لما كان يعتقد الشعب الفرنسي عن الألماني خاصة في الجانب الأدبي فقد عبرت عن غنى هذا الأدب وجودة مؤلفاته.

وجهت انتقادات كثيرة لهذا العلم- من الناحية الشكلية- كونه يتعارض مع الدراسة التاريخية التي تجرد النصوص من مرجعياتها ودراستها دراسة وثائقية، ولكن الحاجة الملحة لهذا العلم تجاوزت كل هذه الإشكالات.²

ثالثاً: أنواع الصورة في الأدب المقارن

1- الصورة السلبية:

يقدم الرحالة أو الأديب صورة سلبية عن بلد ما، في حالة غياب سمة الموضوعية في تشكيل مكونات الآخر على الرغم من التقرب إليه ومعرفته معرفة عميقة إلا أن الايدولوجيا والسياسة تتحكم في الكتاب مما يبرز الفكر التعسبي الاستعلائي.

*- مدام دوستيل : هي أديبة وناقدة فرنسية اسمها جيرمين نيكر تعد من أدباء ما يسمى بالحقبة قبل الرومانسية لها مجموعة أعمال من أشهرها كتابها الرحلي : عن ألمانيا

¹- المرجع السابق، ص 110

²- ينظر: دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص 89

فالشرق الذي يتحدث عنه المستشرقون في رحلاتهم غير موجود وهو من صنع المخيلة الغربية المشحونة بمشاعر الحقد والغيب¹.

تعتبر اغلب الكتابات الغربية على الصورة المثيرة التي تتعارض مع الخيال المرتبط بعوالم ألف ليلة وليلة، المبني على العالم الروحي والظواهر الشاذة والجنسية وخاصة فيما يتعلق بهذه الأخيرة.

إن تراكمية هذه الكتابات ولد ما يعرف بالصور النمطية، التي كرس للعداء بين الشعوب وجعلت الآخر في مرتبة متدنية ومشوهة وبهذا تحولت الى وسيلة ضد الآخر وتكريس للامبريالية.

تعتبر الصورة السلبية عن سرد مبالغ وبعيد عن الحقيقة يسعى من خلاله الكاتب إلى إرضاء آمال أمته يكشفه الباحث من خلال دراسة معمقة لتلك الأمة المنظورة.

لا يمكننا في هذا الصدد إغفال رحلة الفرنسي رونييه دو شاتوبريان للبلاد الشرقية مخلفاً أثر أدبي رحلي بعنوان الطريق من باريس إلى القدس حمل جميع سمات الكتابة الرحلية المضادة وكل ميزات الرحال العنصري

2 الصورة الايجابية:

في المقابل من الرحلات التي قام بها الرحالة الغربيون إلى الشرق ورسوموا في كتاباتهم صوراً سلبية مشوهة، هناك رحلات قوامها الإعجاب والانبهار الآخر في ثقافته وحضارته ومدينته، فهي بهذا رصد موضوعي لمكونات الثقافة المنظورة وتحسين لصورة مغلوبة .

تتصف جل هذه الرحلات بالانبهار ورؤية الغرب انه أساس الحضارة والرقى كما تعبر عن إحساس رحاليها بفجوة العمق الحضاري بين الشرق والغرب ومن بين هذه الرحلات رحلة رفاعة رافع الطهطاوي إلى باريس في الفترة ما بين 1826 - 1831 والتي رسم فيها صورة

¹ - ينظر: خليل الشيخ، يوسف بكار، الأدب المقارن، منشورات جامعة القدس المفتوحة، عمان، الأردن، 1996ص211

راقية للحضارة الأوروبية وعبر عن تأثره بالفكر التتويري الفرنسي في ق 18م والفكر الديمقراطي المتحرر.¹

كما نجد كذلك رحلة **طه حسين** إلى فرنسا، معبرا عن هذه التجربة في روايته أديب التي تجلي نظرة العربي إلى الغرب وهي نظرة الكثير من المثقفين الذين انساقوا وراء نزواتهم والذين راو فيه عالم التقدم والحرية ومن ثم حوار التخلف والتقدم.²

تتحكم ذات الفرد المبدع في مواجهة النسق الثقافي الخارجي ورسم الصورة والتعبير عنها، وعلى المثقفي تحديد بدقة ملابسات وظروف إنتاج هذه الصور خارج حدود تعابيرها.

رابعاً: مصادر تشكيل الصورة:

هناك مجموعة من الوسائط المساهمة في رسم صورة الآخر في مخيلة الأنا، من بينها

ما يلي:

1. الكتب:

تحمل الكتب في طياتها ملامح عن صورة الشعوب والمجتمعات، وثقافة بعض المناطق من العالم، وبهذا تعتبر وسيط مهم وغير مباشر يسهم في تقديم صورة الآخر ودراستها، كونها تحمل سمات وأفكار تنتقل من امة إلى أخرى، يقول الناقد **الطاهر احمد مكي** في هذا الصدد: "تضطلع الكتب بدور مهم في نقل الأفكار وإشاعتها بين لغة وأخرى، وقد تترجم كاملة أو معدلة...تضم روائع أدب أو أكثر تروج خارج موطنها الأصلي".³

¹ - ينظر ناجي نجيب، الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، مجلة الفكر العربي، العدد 32 ابريل، 1983، معهد الإنماء العربي، بيروت، ص308

² - ينظر: كمال عبد الملك، صورة أوروبا في الأدب الحديث، مدارك للنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011، ص34

³ - الطاهر احمد مكي، الأدب المقارن، دار المعارف دار المعارف للنشر، القاهرة، ط1، 1987 ص311

إن رواج هذه الكتب في غير موطنها الأصلي يعطي ملامح مهمة تساهم في دراسة الصورة المكونة للأخر ولا يجب أن تؤخذ هذه التصريحات وتلك بحمل الجد، بل من المنهجي أن تخضع للشك والتمحيص والدراسة التحليلية.

من هنا يأتي دور الترجمة كونها مساعد في نشر الخبرات والصور من ثقافة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر، وقد عرفها **دانييل هنري باجو** بقوله: " نقل نص من ثقافة إلى أخرى ومن منظومة أدبية معينة والى منظومة أخرى...إنها إدخال نص في سياق آخر".¹

يكتب النص في سياق ولغة غير اللغة المصدر التي أنتج فيها، ويتوجب احترام الأعراف الطبوغرافية للنص الأصلي وكذا موضوعه وأفكاره .

ساهمت ترجمة نص **ألف ليلة وليلة** إلى الفرنسية من طرف **غالان** * Gallan في رسم صورة الشرق في المخيلة الغربية، واعتبر الكثير من الأوروبيين وغيرهم أن الشرق الحقيقي هو شرق الصحراء الواسعة، وشرق العجائب والغرائب المثيرة الذي كرس له **غالان** عبر الخيال وبثه في نفوس القراء .

2-الرحلة:

تعتبر الرحلة رافدا أساسيا من روافد الصورة، ووسيطا مباشرا يستند إلى التجربة الشخصية في معرفة الآخر، ينتقل الرحالة من بلده حاملا نسقا ثقافيا يختلف في مجمله عن نسق البلد الذي يرحل إليه يقدم في رحلته أهم ملامح الثقافة المنظورة معبرا عن الصدمة الثقافية التي واجهها، وهي بذلك "تكشف عن العلاقة التي تسود بين الأمم والشعوب، سواء كانت هذه الصورة ايجابية أم سلبية وتساهم بهذا في تشكيل صورة أمة في أدب أمة أخرى".¹

¹ - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، ص63

* - أنطوان غالان مستشرق وعالم اثار فرنسيأول مترجم لملمحةBeowulfاشتهر بترجمته كتاب ألف ليلة وليلة، ظهرت في اثني عشر مجلداً من 1704 إلى 1717. ترجم أيضا «حكايات وخرافات هندية ليبيدا وللقرمان». استناداً إلى ترجمة تركية 1724، في مجلدين

¹ - يوسف بكار، خليل الشيخ، الأدب المقارن، ص210.

إن أغلب الكتاب الغربيين في كتاباتهم الرحلية يعملون على ترسيخ فكرة المركز والهامش وان كان هذا غير واضح في كثير من الأحيان، إلا أننا نستشفه ضمناً في تصويرهم للصورة العرب.

الرحلة عمل مفيد للأدب المقارن لأنها اتصال مباشر بالشعوب يفتح آفاق لا تنهياً من دراسة الكتب وحدها كونها دراسة تستند إلى التجربة الحية¹.

كانت رحلة العلماء إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي من المظاهر الحضارية الواضحة في مختلف العصور، كان طلب العلم والاستزادة أحد الأسباب الرئيسة في ذلك فضلاً عن الحج في الأراضي المقدسة أورشليم².

شكلت القدس قبلة المسيحيين في أداء مناسك الحج وتوافد إليها الرحالة من كل صوب وشكلوا بهذا أدبا رحلياً ميزاً فمنذ القرن التاسع أخذ سيل الأوروبيين يتدفق إلى الأراضي المقدسة وهو ما استمر إلى القرن الحادي عشر لتتوقف حركة الحجاج بعد سيطرة السلاجقة على السلطة وتضييق الخناق عليهم لكن سرعان ما استعادت حركة الرحلات نشاطها ثانية خلال الحروب الصليبية...³

ومن أبرز رحالة الحج أورشليم رجل الدين المسيحي فون اولدنبورغ* عام 1211م إلى إمبراطور ألمانيا اوتو الرابع** Otto IV واصفاً مدن سوريا وفلسطين خاصة المقدسة في

¹ - ينظر: طه ندا، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1991، ص32.

² - عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، دار المدار بيروت، ط1، 2004، ص14.

³ إبراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار السافي، بيروت، ط1، 1997، ص13.

* - فون اولدنبورغ: رحالة ومستشرق ألماني زار الشرق الإسلامي ووضع تقارير عسكرية بعد خمسة عشر عاماً على هجوم الجيش الألماني على قلعة صيدا (لبنان) ومدينتها وتدميرها في العام 1197.

** - اوتو الرابع 19 - 1175 Otto IV مايو 1218) هو أحد الملكين المتخاصمين اللذان حكما الإمبراطورية الرومانية المقدسة، قبل أن يصبح الملك الأوحده عام 1208، ثم إمبراطوراً منذ عام 1209 إلى أن أُجبر على التنازل عن العرش عام 1215 لصالح فريديريك الثاني بعد هزيمته في معركة بوفيين على يد فيليب الثاني ملك فرنسا .

شكل تقارير عسكرية مبدي اهتمامه بالشؤون السياسية والعمران، مع شيء من التفصيل في وصف قلعة الصليبيين... كما ابدي استيائه الشديد لوقوع القدس تحت قبضة المسلمين.¹

شكلت اغلب رحلات الحج إلى القدس البذرة الأولى للرحلة الشرقية، عبر فيها الرحالة الغربي عن إعجابه بالحضارة العربية مما شكل مشاعر الغيرة والحقد في نفوس الغرب ورفع راية العداوة .

خامسا: عناصر تشكيل الصورة الأدبية عن الآخر

تتداخل مجموعة من العناصر في تشكيل الصورة الأدبية عن الآخر من أبرز هذه العناصر:

- اللغة التي تعتبر المادة الخام لكل تعبير أدبي إنساني، وبفضلها يتم تفعيل صورة الآخر وتقديها، وتشغل بهذا وظيفة هامة في التوصيل ويتوجب تحليلها بشكل واسع ومتعدد المعاني.²

تتكون اللغة من مجموعة كلمات وجمل ذات مخزون دلالي متنوع، تحمل في ثناياها مشاعر وأفكار ينقلها المقارني معبرا عن نظرتة للثقافة الجديدة .

- كما تختص دراسة الصورة الفضاء المكاني والزماني من اجل فهم أوسع لها، وتقدم بعض التفسيرات المضيئة.¹

يمثل الزمان والمكان أحد العناصر المهمة في تشكيل الصورة كونها الفضاء الرئيسي لذي يتمحور فيه كيان الآخر والملاذ المتحرك للرحلة.

¹ - المرجع السابق، ص15.

² - دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ص93.

¹ - ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية ، ص116

• يساهم الخيال في إنتاج الصورة، كونه يعبر عن الإحساس بالأخر ويساعد في رسم وتخيل صورته باعتباره ملكة ذهنية تحمل سمات المنظور، كما يرفع اللغة المعبرة إلى مرتبة الجمال الفني.¹

كما تدرس الصورة مختلف الملامح المساعدة في التعرف على الأخر، وهي بهذا تقترب من مصطلحات العلوم الأخرى من تاريخ، دين، أنتروبولوجيا، جغرافية...

• إن المتأمل لكثير من الصور يلاحظ خضوعها لعناصر مشوهة لها، خاصة شيوع النمط وبهذا تصبح مؤذية على المستوى الثقافي وتبدوا أقرب إلى الآلية والجمود² في ظل النمط تبتعد الصورة عن الواقع وتعبر عن فكرة إيديولوجية هامشية وتتجلى بنظرة عنصرية غير موضوعية.

أخيرا نستنتج أن علم الصورة من أهم فروع الأدب المقارن المستحدثة كونه يساهم في الكشف عن الموروث الثقافي والتاريخي والاناسي للأخر، وبهذا فهي تركز للتقارب بين الشعوب وتحسن الصورة المغلوطة بينهم.

هناك العديد من الوسائط المساهمة في تشكل الصورة، منها المباشر وغير المباشر: أما النوع الأول هو الكتب وما تحمله من مخزون فكري يعبر عن الوعي بالأخر، والنوع الثاني هو الرحلات باعتبارها وسيط يعتمد على التجربة الحية وبهذا تنتوع الصور من ايجابية وسلبية والعامل الأساسي بينهم هو الموضوعية فالتحلي بها يعطي الصورة حقها من الحقيقة. من المنهجي في دراسة الصورة تحليلها إلى عناصرها المكونة لها، ودراستها بعمق قصد الكشف عن أهم ملامح الثقافتين الناظرة والمنظورة.

¹ - المرجع نفسه، ص 117

² - المرجع نفسه، ص 115

الفصل الأول:

في أدب الرحلة و إنتاج الصورة

أولاً : أدب الرحلة بين المصطلح والمفهوم

1- لغة

2- اصطلاحا

ثانيا الرحلة والادب

ثالثا : أدب الرحلات في التراث العربي والغربي

ادب الرحلة في التراث العربي

ادب الرحلة في التراث الغربي

رابعا : تجليات صورة الشرق في الرحلات الغربية .

أولاً: أدب الرحلة بين المصطلح والمفهوم

للاقترب من مفهوم الرحلة كجنس أدبي ضارب في القدم، يتوجب علينا أولاً الوقوف على نخبة المعاجم العربية قصد التعرف على أصل هذا المصطلح وربطه بالمعنى الاصطلاحي.

1- لغة:

تدل لفظة رحلة في معناها اللغوي على انتقال شخص أو جماعة من مكان إلى آخر لمقاصد وغايات مختلفة.

ففي معجم مقاييس اللغة لابن فارس "رحل، الرأء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضى في السفر، رحل، يرحل، رحالة الرحلة والارتحال، رحله إذا أطلعه من مكانه"¹.
أما ابن منظور فيعرف الرحلة بقوله رحل الرجل إذا سار، قوم رحل أي يرحلون كثيراً، الترحل والارتحال، الانتقال والرحلة اسماً لعملية الانتقال.²

تدور جل هذه المعاني على فعل السفر وتغيير المكان الأصلي إلى مكان آخر، وهذه اللفظة تشترك مع لفظة سفر في الدلالة على الرغم من اختلاف البنية اللغوية بينها.

والرحلة هي صفة القائم بهذا الفعل وهي مشتقة من الكلمة ذاتها.

2- اصطلاحاً:

عرف الإمام الغزالي الرحلة أنها نوع من الحركة ومخالطة الناس، مع زيادة تعب ومشقة وأن الإنسان لا يسافر إلا في غرض والغرض هو المحرك الأساسي.³

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، ج2 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987، ص 497

² - ابن منظور، لسان العرب، ج5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2000، ص172

³ - ناصر عبد الرزاق المواقفي، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، مصر، القاهرة، ط1، 1995، ص24

تتنوع أغراض الرحلة وتختلف من رحالة إلى آخر ولكل هدف من رحلته يخدم حاجاته سواء النفسية بكون الرحلة محط مغامرة واكتشاف، أم غاية تخدم حاجاته المادية وهذا ما يفرز أنواع رحلية مختلفة .

إن الحديث عن مصطلح الرحلة يقودنا للحديث عن كونها جنس أدبي مستمد من أحداث سفر، قام بها الرحالة إلى بلد من البلدان يحكي فيها مشاهدته من أحداث وما عاشه من مغامرات.

يعرفها الناقد مجدي وهبة أنها مجموع الآثار الأدبية التي تتناول انطباعات المؤلف من خلال رحلته إلى البلاد المختلفة، يتعرض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق وسير مراحل رحلته مرحلة مرحلة.¹

تقوم الرحلة في أساسها على ركيزة أساسية وهي الحكى فالسارد يعمل على تجلية أحداث ومواقف مر بها الرحالة في سفره وبهذا يجلي لنا شيء من ذاتيته.

إن لرحلة فعل وخطاب؛ فعل في كونها قيام الشخص بالرحلة وانتقاله من مكانه الأصلي إلى مكان أو أمكنة أخرى مثل رحلة البيروني، ماركو بولو... أما كونها خطاب فهي عملية كتابة الرحلة وتلفظه أي عملية ترهين المشاهد والظروف المحيطة بالرحال في مكان وزمان آخرين.²

إن تنوع الرحلات التي عرفتها البشرية على اختلاف غاياتها... ساهمت بدرجة كبيرة في الأدب المقارن بعامة وفي إنتاج الصورة بصفة خاصة، هذا الفن المقارني الجديد الساعي إلى التقريب بين الشعوب وربط العلاقات الخارجية فيما بينها، بالتقاء الرحالة مع العالم الآخر ونقل هذه التجربة مطعما إياها بما يراه مناسباً ومفيداً.

¹ - مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان للنشر، بيروت، ط2، 1954، ص17

² - ينظر: سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرياض، ط1، 2012، ص175

ثانياً: الرحلة... والأدب

إن التداخل المعرفي لمجموع الحقول التي تتدرج ضمن نص الرحلة ولد إشكالية وأثار جدلاً واسعاً حول تصنيف الرحلات في أي خزانة من العلوم؟ أهى في مجال الأدب أم الجغرافية؟ أم تتدرج في خزانة النصوص التاريخية...؟

إن أغلب النقاد والدارسين أشاروا إلى علاقة النص الرحلي بالأدب لأنه الوسيلة المثلى لصياغة المتن الرحلي وعوالمه، "فأسلوب الكتابة واللغة بجمالياتها وما يضيفه الكاتب من صيغ بلاغية وتعبيرية، علاوة على الأسلوب السلس في التشويق، كل هذا يجعل النقاد والدارسين يدخلون أدبيات الرحلة ضمن فنون الأدب النثري، عندما تصبح قراءة هذا اللون من الكتابة متعة ذهنية صرفة".¹

يسجل الرحالة انطباعاته ومشاهد الرحلة بأسلوب دقيق في قالب لغوي جمالي وفق تقنيات أدبية حاملاً رؤية مشهدية ذات طابع لا مألوف وغريب كما أن الخيال يساهم في انتقال عوالم الرحلة ووقائعها والمحطات التي مر بها الرحالة إلى خطاب أدبي الذي يعده ابن عربي "أتم علوم المعرفة وقوة خلاقة مبدعة".²

تتجسد التصورات المجردة في العقل فعل كتابي بمساعدة الخيال، لأنه ملكة ذهنية تعمل على تطوير المعارف الحسية وبلورتها ومن ثم تتحول طريقة الكتابة من السرد الحي المباشر إلى استضافة عالم العجيب والغريب.

تحلّل الرحلات أهمية أدبية بالغة خاصة تلك التي قام أصحابها بتأليفها بسبب خروجهم لطلب العلم والتزود، وهي بهذا تطور أسلوب الكاتب وتتمى أفكاره ما ينعكس على أدبه.³

تحفل كتب الرحلات بالأساطير والخرافات ومختلف ألوان البديع، مما يفرز لنا لونا

¹ - ينظر سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديماً وحديثاً، مكتبة غريب للنشر، الإسكندرية، ط2، دت، ص8

² - سليمان العطار، الخيال عند ابن عربي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط1، 1991، ص8

³ - ينظر: عواطف محمد يوسف النواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط1، 1997،

جماليا يمتزج بالوصف الذي يبلغ حدا كبيرا من الخلق ما يجعل الرحلة لوحة فنية أدبية بامتياز.

من خلال ما سبق يمكن القول أن الرحلة لون أدبي متميز ذو أسلوب مشوق ومتنوع بين وصف وسرد وحوار يحمل مختلف الصيغ الجمالية التي تصنع تميزه عن باقي الأجناس.

ثالثا: أدب الرحلات في التراث العربي والغربي:

تعتبر الرحلة فعل مصاحب للإنسان، منذ وجوده فهو في تنقل دائم في أرجاء الأرض بحثا عن أسباب الوجود، وتلبية لحاجاته... ولهذا فقد اهتم الإنسان بهذا الفعل وكرس شتى الوسائل في سبيل تطويره، كما سعى إلى تدوين مختلف الجوانب المتصلة به فيما يسمى بأدب الرحلة.

1- أدب الرحلة عند العرب:

عرف العرب الرجل من القدم، وذلك لطبيعة البيئة البدائية التي اقتضت على الإنسان التنقل للبحث عن أساسيات الوجود وكذا بهدف التجارة والتكسب، كما ذكرت الرحلة في القرآن الكريم لقوله تعالى: ﴿لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾¹.

والى جانب ذلك أصبحت الرحلة عنصرا أساسيا من عناصر القصيدة الجاهلية، وترجمت الكثير من الأشعار رحلات بعض الشعراء داخل الجزيرة العربية وخارجها.²

عرف العرب الرحلة منذ أقدم العصور وعملوا على تثبيتها في مختلف الأنواع الأدبية خاصة الشعر، ومع ظهور التدوين أضحت تدون في أجناس أدبية مختلفة.

مع مجيء الإسلام انطلق العرب في الفتوحات خارج الجزيرة العربية واتصفت الكتابات الأولى في رحلات المسلمين بالطابع التقويمي الذي كان هدفه تقويم البلدان وجغرافيتها

¹ - القرآن الكريم، سورة قريش، الآية 1 / 2

² - نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 19 الهجري، دار المأمون للنشر

والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص18

لحاجتهم إلى معرفة الطرق فضلا عن عنايتهم بالتجارة.¹

عزز الإسلام من دور الرحلة لأنها تسهم في التعرف على الشعوب والأوطان الأخرى ونشر الإسلام، فأنجبوا أدبا جغرافيا وثقوا فيه البلدان وجغرافيتها. كل هذه الأشكال شكلت الإرهاصات لنشأة فن الرحلة عن العرب كما أكدت على معرفة العرب لفن الرحلات .

أ- أعلام أدب الرحلة عند العرب:

• سلمان الترجمان 227هـ - 842م

من أشهر رحالة القرن الثالث، عراقي الأصل، عاش في زمن الخليفة الواثق بالله سمي بالترجمان لأنه كما تروي الكتب كان يعرف ثلاثين لسانا، وهو من الأعلام الذي اشتهر عمله على اسمه، أما عن رحلته فهي في منتهى الغرابة، و من النقاد من لم يقر بمصداقيتها نظرا لأحداثها الخارقة، ونحو هذه الرحلة أن الخليفة العباسي الواثق بالله 722 م رأى في المنام أن السد الذي بناه الإسكندر والذي يقع بين بلاد المسلمين وبين أجوج مفتوحا فأخافته الرؤيا، فأمر الخليفة سلام الترجمان بالرحيل لتتقد السد.²

تعد هذه الرحلة من أهم الرحلات الإسلامية لأنه اتجلي أوجها من الحضارة العباسية كما تزودنا بمعارف جغرافية وتاريخية.

• ابن فضلان 309 هـ - 921م

هو احمد بن عباس بن راشد بن حماد البغدادي، عالم إسلامي عرف في القرن الرابع للهجرة، قام برحلة إلى البلغار استجابة لدعوة من ملك البلغار الذي اسلم فأرسل إلى الخليفة المقتدر بالله يطلب منه أن يفقهه في الدين ويعرفه بشرائع الإسلام.³

¹ - ينظر: احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للنشر، جدة، ط1، دت، ص35

² - فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة ط2، 2002، ص 91

³ - احمد رمضان، الرحلة والرحالة المسلمون، ص38-39

نلاحظ تنوع أغراض الرحلة في الإسلام، فغرض هذه الرحلة ديني قصد التعريف بشرائع الإسلام.

تكمّن قيمة هذه الرحلة ليس فقط في معلوماتها ووصفها الدقيق، إنما في سردها التحليلي للسمات الانتروبولوجية والانتوغرافية... واستطاع ابن فضلان أن يخلق لنا صياغة جديدة مجملّة وأن يبيلور لنا هذا الكم في نص مترابط أشبه ما يكون بقصة متماسكة.¹

لم يتوقف تأثير رحلة ابن فضلان على الأدب فقط، بل تعدى إلى العالم الغربي وأنتج فيلم سينمائي بعنوان **the 13th warrior** المحارب الثالث عشر، حيث تقوم رواية هذا الفيلم على أحداث الرحلة نفسها.

• البيروني 440هـ 1048م

عرف في القرن الخامس كأشهر رحالة، وهو أبو الريحان البيروني رياضي وفلكي وفيلسوف وجغرافي ومؤرخ، صاحب المؤلفات العلمية الرائدة التي حققت شأنًا عظيمًا خلال عصر النهضة العربية .

قام برحلة إلى الهند ودرس أحوالها وجغرافيتها وحضارتها، مبرزًا مختلف العادات والمعتقدات السائدة فيها، والمبادئ الفلسفية التي تنظم أبنائها في كتاب سماه تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مردولة.²

ساهم هذا الكتاب في التعريف بالحضارة الهندية وعلومها وصور مختلف جوانبها ولهذا عدّه الباحثون من أهم مصادر الحضارات القديمة.

¹ - ينظر: فؤاد قنديل، الرحلة في التراث العربي، ص74

² - المرجع نفسه، ص300

• ابن جبير 540هـ / 1145هـ

هو أبو الحسن محمد بن أحمد ابن جبير الأندلسي من علماء الأندلس في الفقه والحديث، صاحب كتاب **تذكرة أخبار عن اتفاقات الأسفار المعروف برحلة ابن جبير**.¹ تعتبر رحلته أول فن أدبي مستقل عن التاريخ والجغرافيا، وهي تقص ما شاهده في طريقه إلى حجه وعودته منه بشكل مذكرات يومية جمعها بعض تلاميذه ونشرها بعد وفاته، بلغة بسيطة سهلة ملائمة تماما لموضوعها وطريقة في السرد محببة إلى النفس وبأسلوب صادق إزاء الحوادث والمواقف التي صادفته.²

توسع ابن جبير في رحلته واصفا كل ما رأت عينه وسمعت أذنه في الطريق من غرناطة إلى مكة المكرمة، كما عني كثيرا بوصف المشاهد الدينية في قالب أدبي مميز.

• عبد اللطيف البغدادي:

ميز القرن السابع الهجري ظهور الرحالة عبد اللطيف البغدادي صاحب **رحلة الإفادة والاعتبار في الأمور والمشاهد والحوادث المعاينة بأرض مصر**، وهو الإمام الفقيه اللغوي اشتهر بحبه للعلم كان معاصر لكل من الرحالة ابن جبير والأديب العالم ياقوت الحموي . صور في رحلته أحوال مصر التي بقي فيها ثلاثة عشر عاما ودرس في جامع الأزهر الشريف تكمن أهمية رحلته في الرصد المباشر للظروف الاقتصادية والاجتماعية السيئة في مصر تلك الفترة والتي رآها رؤية العين.³

يعتبر القرن الثامن، قرن الرحلة الأدبية العجائبية بامتياز نظرا للقيمة الفنية التي زخر بها هذا النوع الأدبي، فقد حفلت بالسرد الخلاق ورواية العجائب، وقد عرف في هذه الفترة أشهر رحلة عالمي :

¹ - على إبراهيم كردي أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2013، ص33

² - شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف للنشر والتوزيع، ط4، القاهرة، دت، ص71

³ - ينظر فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، ص422- 423

• ابن بطوطة 703هـ-1303م

هو محمد بن عبد الله بن إبراهيم الدواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة رحالة ومؤلف وقاص وفقه مغربي عرفت أسرته بالفضل وحبها للعلم.¹

يعد ابن بطوطة أشهر رحالة على الإطلاق، طاف في معظم البلدان في تلك الفترة وخلف لنا مادة علمية غزيرة تناولها الباحثون جيلا بعد جيل وارت في الكثير من الانتاجات الفنية .

أما عن رحلاته 779-1377 فهي استمرت 25 سنة في ثلاث رحلات كان الغرض منها ديني أداء فريضة الحج، بدأت رحلته الأولى من مدينة طنجة مروراً بالساحل الإفريقي، فمصر والشام، الحجاز العراق وعمان، البحرين، خراسان أفغانستان والهند والصين، سومطرة، وجزيرة سرنديب وعاد إلى فاس عام 750هـ 1349.

أما الرحلة الثانية فتوجه فيها صوب الشمال إلى الأندلس وأقام فترة بغرناطة ثم عاد إلى المغرب، وفي الرحلة الثالثة خرج عام 754هـ 1354م إلى وسط إفريقيا فزار الممالك الإسلامية فيها، قام بتدوين مشاهدات ابن بطوطة محمد بن جزي الكلبي بإملاء من الرحالة نفسه، تحت عنوان تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.²

مرّ ابن بطوطة بالعديد من الأماكن واصفا جوانب متعددة للحياة فيها مجليا حرفها وعلومها وفلسفاتها، كما شغل العديد من المناصب السياسية وهذا ما يجعل رحلته تزخر بألوان جمالية متنوعة.

تعتبر هذه الرحلة أشهر الرحلات على الإطلاق كما تعبر عن موروث عالمي مشترك، تأثر بها العديد من الرحالة والأدباء بفضل ترجمتها المتعددة اللغات.

¹ - إبراهيم كردي، أدب الرحل في المغرب و الأندلس، ص65

² - جمال الدين فالح الكيلاني، الرحلات والرحلة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية، دار الزينة للطباعة والنشر،

القاهرة، 2014، ص20- 21

وهذا تتحصر الرحلات في القرن الثامن الهجري وتتوقف تقريبا خلال القرنين التاسع والعاشر 15-16م نظرا للركود الذي أصاب الحياة العربية بشكل عام والسياسية منها، التي أدت لمشاكل السلطة.¹

مع حملات الاتصال الغربي على البلاد الشرقية فتحت الكثير من أبواب الاتصال مع الآخر قصد اكتشاف حضارته والتزود بخبراته فيما يسمى بعصر النهضة، فراح العديد من أبناء الشرق يرحلون إلى البلاد المجهولة إما لطلب العلم أو السياحة... عملوا بهذا على إنعاش أدب الرحلة خاصة بظهور الطباعة والترجمة كما ساعدت البعثات العلمية على الخروج من الجدود الجغرافية والتزود بالمعارف وسجلوا هذه التجربة في نطاق ما يسمى بأدب الرحلة الذي قام به العديد من الرحالة أبرزهم:

• رفاة الطهطاوي:

هو الشيخ رفاة الطهطاوي بن بدوي بن عل بن رافع الطهطاوي، ولد في طهطا محافظة سوهاج الآن، درس على يد الشيخ حسن العطار وهو الذي وجهه إلى طريق الجد والتجديد في طلب العلم ودراسة العلوم الغير تقليدية، كان من بين أوائل البعثة العلمية الذي أرسلها محمد علي حاكم مصر، دامت رحلته خمس سنوات وأنتجت ثمرة أدبية هي كتابه الرحلي **تخليص الإبريز في تلخيص باريس** تضمن إمامة شاملة لمدينة باريس وحضارتها مسجلا كل ما صادفه من أمور ومعاملات وعلوم.

كانت الغاية من تدوين رحلته لسببين، أما الأول فهو التنبية على ما يقع في سفره من أمور وما يصادفه من أمور غريبة وأشياء عجيبة، وتوصية أهله كالشيخ حسن العطار الذي كان مولعا بسماع الأخبار وجديد الدراسات والعلوم، أما السبب الثاني وراء تقييدها فهو رغبته في حث ديار الإسلام على البحث في العلوم البرانية والفنون والصناعات التي رأى من كمالها والانتفاع بها في بلاد الإفرنج، وبهذا لم يركز فقط في رحلته على وقائع السفر بل تعداه إلى

¹ - فؤاد قنديل الرحلة في التراث العربي، ص 80-81

الجانب العلمي في الحضارة.¹

يعتبر الطهطاوي رائد فن الرحلة في عصر النهضة، لأن منته الرحلي عبر عن فعل الرحلة التي خاضها، وضم مجموع المكونات النسقية لثقافة الآخر، في تجلياتها الاجتماعية والسياسية والفكرية والعلمية خاصة العلوم الطبيعية والرياضية ما جعل رحلته غاية في الأهمية.

• أحمد فارس الشدياق:

هو أديب وصحفي وكاتب لبناني من أوائل الأفاضال الذين اضطلعوا برسالة التنوير والإصلاح آنذاك، أتاحت له الفرصة أن يسافر إلى جزيرة مالطا بدعوة من الأميركيين له في سنة 1834م للتعليم في مدارسهم وتصحيح ما يصدر من مطبعتهم من كتب عربية.² كان من نتائج هذه الرحلة التي دامت أربعة عشر عاما، كتاب الوساطة في أحوال مالطة الذي جلى فيه وصفا لهذه الجزيرة من الناحية الجغرافية، التاريخية، الاجتماعية، الأنتروبولوجية، كما صور لنا الآخر في واختلافه عن الثقافة العربية في عاداته وثقافته ... الخ .

أما في العصر الحديث والمعاصر فقد زاد وثاق الاتصال بين الشرق والغرب وفتحت آفاق ووسائل الاتصال وتعمقت الرحلات وعبرت عن وعي الرحالة العرب وإحساسهم بفجوة الاختلاف الحضاري ومن بين رحالة العصر الحديث محمد حسين هيكل يوميات في باريس في الأخير نقول أن العرب كانت لهم روح المغامرة والاستكشاف، فعرفوا الرحلة ووصلوا إلى أماكن عديدة استغرقت سنوات من عمرهم ورحلوا وفق مقاصد متعددة إما للحج أو طلب العلم والتزود وإما لمقاصد تجارية (طريق الحرير) وأيا كان الغرض إلا أنهم أنتجوا لنا أدبا غزيرا ومتنوعا عملوا فيه على تعريفنا بالأمم والثقافات الأخرى ورسوموا فيه صورا جميلة للحياة الإنسانية معبرين عن لحظة التقاء الإنسان مع العالم الآخر.

¹ - ينظر: حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط2، 1983، ص69

² - المرجع نفسه، ص85

2- أدب الرحلة في التراث الغربي:

إن الملاحظ لأدب الرحلة في التراث الغربي يجد افتقاره للمدونات الرحلية التي تؤكد على وجود هذا الجنس في التاريخ الأوروبي القديم، إلا أن هناك من الشواهد ما يثبت الممارسات الكتابية التي تقدم معلومات وافية عن الشعوب والمجتمعات، فكتابات بعض الإغريق مثل الشاعر الملحمي هوميروس 89 ق م Homère المؤرخ هيرودوت Hérodote الذي لقب بأبي التاريخ فقد حرص في كتابه Histoires التواريخ على تقديم كل ما يستحق التسجيل عن التاريخ الإنساني حتى زمانه بدقة وأكثر شمولية مهتما بجميع مناحي الحياة آنذاك في قالب أطروحة أنتروبولوجية.¹

شكلت هذه الانطباعات التي كتبها الرحالة والمؤرخون الأوائل البذرة الأولى لأدب الرحلة عند الغرب، والقائم على رصد الشعوب والمجتمعات .

يذهب نبيل راغب إلى اعتبار كسينفون* صاحب كتاب الأناباسيس الذي ألف عام 371 ق م، الواضع الحقيقي للتقاليد الأدبية للرحلات باعتباره استطاع أن يجمع في رسائله الحرية بين الأمانة الوصفية والتيمة الفنية التي تتعدى حدود السرد المباشر.²

ظل هذا اللون غير ممنهج ومعروف كلون من ألوان التعبير الأدبي حتى العصور الوسطى، التي عملت على تشجيع رحلات الحج إلى أورشليم، والفت بهذا كتب رحلة كمرشد للأراضي المقدسة وحاملة نسق الآخر، وأيا كانت غاياتها فهي أولى الكتابات الساعية إلى اكتشاف الآخر.

مع مرور الزمن ظهرت رحلات مختلفة وأهم ما يتبادر إلى الذهن في هذه الفترة رحلة

¹ - ينظر: حسين، محمد فهمي، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1989، ص19

* زينوفون أو كسينوفون هو فيلسوف يوناني قديم ومؤرخ وجندي ومرترق وكان أحد طلاب سقراط. عرف زينوفون بتاريخه لزمانه المعاصر في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، حيث يروي عمله "هيلينيكاً" السنوات السبع الأخيرة للحرب البيلوبونيسية وأثارها (431-404 قبل الميلاد)

² - نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، العدد 88، يوليو، 1984، دار الفيصل الثقافية، الرياض، السعودية، ص71

ماركو بولو .

ماركو بولو Marco polo /1254 /1324م:

عرف ماركو بولو ابن مدينة البندقية كأشهر رحالة أوروبي في العصور الوسطى، وكأحد أهم مشاهير الاكتشافات الجغرافية عبر الزمن، وهو من عائلة غنية احترفت التجارة ورحلات التبادل والشراء.

قام برحلة إلى الشرق استغرقت خمسة وعشرين عاما، منتقلا في آسيا وموثقا إياها في كتابه المليون مقدا وصفا حيا حقيقيا على خلاف ما كان سائدا من روايات السماع والخيال، كما صور فيه مشاهد حول الشعوب الآسيوية التي زارها والمناطق التي أقام بها، وتحدث عن بلاد وأناس لم يسمع بهم احد من قبل ومن هنا احتل مكانة بارزة في تاريخ الرحلات والكشوف الجغرافية والكتابات الانثوغرافية المبكرة.¹

قدم ماركو بولو أدبا رحليا مختلف كشف فيه عن صورة حضارية جديدة مخالفة عن حضارته الأوروبية معبرا عن عراقية وراقي الحضارات الآسيوية عامة وبلاد الصين بصفة خاصة، زخر نصه بألوان متعددة عكست روح الايطالي وسماحته في التعبير عن الآخر، كما كان لهذا الكتاب الإسهام الكبير في الدراسات الجغرافية اللاحقة.

في النصف الثاني من القرن السابع عشر عرف أدب الرحلة تطورا ملحوظا أين بدأت أوروبا تهتم بالإسلام بعد أن عاشت قرونا مرعوبة ونافرة منه، بعد التغييرات التي أحدثتها في موازين القوى الدينية العالمية، فبدأت تدرس واقعه بطرق علمية عن طريق الرحلات والأبحاث الأكاديمية، وكثفوا رحلاتهم خاصة إلى مصر وسوريا والهند.²

لقد كانت الرحلات في عصر النهضة الأوروبية ذات طابع علمي يسهم في الكشف عن

¹ - حسين محمد فهميم، أدب الرحلات، ص20- 21

² - ينظر: الطاهر احمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف للنشر، القاهرة، ط1، 1987

موروث الآخر وحضارته وعلومه، كما عبرت عن وعي الفكر وتعمقه، كما عززت هذه الرحلات تطور العلاقات بين الشعوب وانفتاحها.

ويمكن التمثيل بعدد من الرحالة مثل فرانسوا برينيه 1620-1688م الطبيب الرحالة الذي جاء إلى مصر والشام عام 1654م، وأقام في الهند حتى سنة 1668م، و أصبح طبيب السلطان المغولي اونجريت 1658-1707م، و عاد إلى موطنه فرنسا يحمل ترجمة لكتاب فارسي بعنوان **upanishad chandogia** وهو كتاب عن تتاسخ الأرواح والذي كان له الوقع الكبير على لافونتئين*¹

لقد سحر شرق ألف ليلة وليلة الإنسان الأوروبي ما جعل الرحلات المشرقية تزداد يوماً بعد يوم بحثاً عن العوالم الغريبة والأسرار المستورة في الصحراء الشرق ارض الديانات السماوية ومهبط الأنبياء، شرق التوراة والإنجيل عالم روحي، وملاذ الإنسان الغربي من مدنية وآلية العالم الغربي.

وهكذا زاد الاهتمام بالشرق مع القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلادي وخاصة مع ظهور حركة الاستشراق حيث يقول فيكتور هوغو **Victor Hugo** في كتابه **les orientales**:

« On s'occupe aujourd'hui i beaucoup plus de l'Orient qu'on ne l'a jamais fait. Les études orientales n'ont jamais été poussées si avant. Au siècle de Louis XIV on était Helléniste, maintenant on est orientaliste²

*- ولد جان دي لافونتئين في 8 يوليو 13 - 1621 أبريل 1695. يعتبر أشهر كاتب قصص في تاريخ الأدب الفرنسي، قول عنه فلوبيير إنه الشاعر الفرنسي الوحيد الذي استطاع أن يفهم تراكيب اللغة الفرنسية، ويتمكن من استخدامها قبل عصرتم عرض فيلم عن حياته في فرنسا في أبريل من عام 2007 (وكان الفيلم بعنوان *Jean de La Fontaine - le défi* جان دي لافونتئين - التحدي)

¹- المرجع السابق، ص311

²Naim Rachid ،'arabes aux yeux de l'orientalisme littéraire ،interfrancophoniesNum3، 2010 ، figures de l'étranger dans la francophone ،p3

صرنا اليوم نهتم بالشرق، أكثر من أي وقت مضى والدراسات الشرقية لم تكن بهذا الكم من قبل، لقد كنا في عهد لويس الرابع عشر هيلينيين والآن صرنا مستشرقين.¹

ومن أوائل الرحالة المستشرقين نجد:

فرنسوا دو شاتوبريان François René de chateaubriand 1768-1848*

الذي قام برحلة من باريس إلى القدس بين سنتي 1805-1806 والتي وثقها عام 1812 في كتاب بعنوان الطريق من باريس إلى القدس.

كانت رحلته إلى القدس غير قصدية وهذا ما يجهله الكثيرون إلا أن وازعه الديني هو الذي جذبته إلى أورشليم، كما أشار في كتابه **الشهداء** بأن رحلته إلى القدس هي خوض في التاريخ، على عكس الرحلة إلى الغرب المكرسة للطبيعة.

عبرت رحلة **شاتوبريان** عن شهادة سياسية وشكلت إدانة متواصلة، حيث انه لم يفوت فرصة إلا وهاجم فيها المجتمع العربي والإسلامي، يقول:

"إن ما نرى ليس شعبا بل قطيعا، يقوده الإمام ويذبحه الانكشاري،...كنت أشعر بالارتياح لمغادرتي القسطنطينية فالمشاعر التي يحسها المرء في هذه المدينة رغما عنه تعمل على إفساد جمالها"²

تعتبر رحلة **شاتوبريان** مصدر من مصادر الكتابات الاستشراقية التي جاءت بعدها، وذلك بتكريسها لقضية المركز والهامش جاعلة الثقافة المنظورة في المرتبة الأعلى معبرة عن

¹ - ترجمة صاحب البحث.

* - رونيه دو شاتوبريان: كاتب فرنسي شغل مكانة غامضة في خريطة الأدب الفرنسي، فهو أقل شهرة من فكتور هوغو، وأقل عمقا وتعقيدا من لامارتين ودي موسيه، لكنه مع ذلك يعد أحد أبرز رواد المدرسة الرومنطيقية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وقد كان رومانسيا على طريقته الخاصة، حمل جميع قسّمات هذه الحقبة، من التعطش إلى جمال الشرق وسحره، إلى الحلم الجامح بالعودة إلى أحضان الطبيعة والمصالحة معاهن أعماله الشهداء الطريق من باريس إلى القدس

² - ينظر: فرانسوا رونيه دو شاتوبريان، الطريق من باريس إلى القدس، تر:مي عبد الكريم، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط1، 2008، ص10-24-25.

الصدمة الحضارية الغربية تجاه الشرق .

ومن أكثر الرحالة الغرب إثارة الاسباني **دومينغو فرانتيسكو باديا Domingo**

Francisco Jordi badia * 1767 - 1818م، وهو رحالة ومستشرق اسباني حمل

اسم علي بك العباسي، تعلم العربية وارتدى ملابس عربية وعبر العالم العربي من الغرب إلى الجزيرة العربية، زار مكة والمدينة خلال أيام الحج، سجل خواطره ورحلته في شكل يوميات في كتاب نشر وترجم إلى العديد من اللغات الأجنبية، ترجمه الباحث مزاور الإدريسي إلى العربية بعنوان "رحلات إلى المغرب"¹

شكل القرن التاسع عشر قرن فن الرحلة بلا منازع فتوالت الرحلات الى الشرق لكشف اللثام عنه والتحقق مما كتبه الرحالون والبحث في مكوناته وعوالمه الغربية والمدهشة على حسب كتاباتهم التي تصور الشرق فنيا وفق خيال غربي يكشف عن التصور الثقافي المركزي، وغير هذا القرن صورة الشرق برمتها وأعطاهما بعدا ايدولوجيا ميز جل الكتابات الرحلية

كما نجد الرحالة **ألفونس دي لامارتين** * 1869 - **Alphons du Lamartine**

1790، الذي قام برحلة إلى الشرق عام 1833م موثقا بعنوان رحلة إلى الشرق زار القدس حالما بأرض التوراة والضياء، ليحيي ذكرياته وشبابه ويحترف لرؤية تلك الجبال التي كان يهبط فيها الرب، وتلك الصحاري التي تؤمها الملائكة لتظهر لهاجر النبع الحقيقي، إنها

*- دومينغو فرانتيسكو باديا: المعروف بلقبه علي باي العباسي رحالة وجاسوس ومغامر ومستشرق كتلاني - أسباني. سافر علي بك وكتب في وصف المغرب، وطرابلس، وقبرص، ومصر، والجزيرة العربية، وسوريا، ولبنان، الأردن، وفلسطين، وتركيا خلال الفترة من 1803-1807.

¹- ينظر الطاهر احمد مكي الأدب المقارن ص314-315

*- ألفونس دي لا مارتين؛ شاعر وسياسي فرنسي. يُعدّ أحد أكبر شعراء المدرسة الرومانسية الفرنسية. خاض غمار السياسة، فتولى رئاسة الحكومة المؤقتة، بعد ثورة 1848. من أشهر أعماله "تأملات شعرية"، و"جوسلين"، و"سقوط ملاك". ومن أشهر قصائده قصيدة البحيرة التي ترجمها للعربية نقولا فياض

الرومانتيكية التي حلم بها.¹

لا يبرح الرحالة الغربي على الوصف المسالم الخلاق حتى يظهر نواياه السياسية الساعية إلى استعمار الشرق، ومبينا الإيديولوجية الغربية التي ترى في الشرق العالم الناقص إلي معالم الحضارة الغربية والتي تتجسد في الاستعمار.

Il est le temps selon moi de lancer une colonie européenne dans ce cœur de l'Asie de reporter a la civilisation moderne aux lieux d'ou la civilisation antique est sortie et de former un empire immense de ces grandes lambeaux de l'empire truc qu's'écroule sous sa propre masse et qui n'a d'héritier que le dessert et la poudre de ruines sur les quelles il s'est abîmé²

في رأيي لقد حان الوقت لإرسال مستعمرة أوروبية في قلب آسيا لنقل الحضارة المعاصرة لهذه الأماكن التي انبثقت من الحضارة القديمة، وتشكيل إمبراطورية عظيمة باستعمال هذه القطع الكبيرة التي خلفتها الإمبراطورية التركية المتهالكة والتي لا وريث لها سوى الصحراء وغبار الآثار المتحطمة³

هكذا تحولت مقاصد رحلة **دي لامارتين** من حب المغامرة والتوق إلى رؤية العوالم العربية الساحرة وارض الديانات، إلى رؤية عنصرية غربية تؤكد على تخلف الحضارة العربية وركودها.

في الأخير نستخلص أن الرحلة الأوروبية تطورت بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلادي كما يؤكد المؤرخون القدماء على وجود رحلات قديمة ضاربة في التاريخ قادها مغامرون وتجار وملاحون شكلت الإرهاصات الأولى لفن الرحلة الغربي وبوابة الانفتاح على الآخر، غير أن أهم رافد لتطور الرحلة الغربية هو ميلاد ثنائية الشرق الإسلامي والغرب المسيحي التي كرس لها الدراسات الاستشراقية ببحثها عن الشرق المتخيل العجائبي

¹ - ينظر: بيير جودا الرحلة إلى الشرق تر مي عبد الكريم الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع سوريا ط20 ص200 ص25.

² - Naim Rachid, l'arabe aux yeux de l'orientalisme littéraire, p12

³ - ترجمة صاحب البحث

فلما لم تجده عملت على تشويه صورة الإسلام والمسلمين في كتاباتها المختلفة.

رابعاً: تجليات صورة الشرق في الرحلات الغربية

اهتم الغرب بالشرق الإسلامي وعكفوا على دراسته والرحل إليه لأنه شكل حدثاً فارقاً في العالم ذلك لسرعة انتشاره وطغيان فكره على الرغم من مرور القرون على رسالة اشرف الخلق محمد عليه الصلاة والسلام .

بلغ هذا اللقاء ذروته مع الحروب الصليبية أين بدأت التساؤلات تكثر حول هذا الدين والعالم الشرقي الذي غير موازين القوى العالمية وهنا بدأت الرحلات الشرقية تنتشر، قام بها حجاج ورحالة أوروبيون إلى الأراضي المقدسة، مثل

ما قام به **وليم فون بولندريله** عام 1332م الذي رحل من إيطاليا ماراً بآسيا الصغرى وسافر بحراً حتى وصل صيدا، بالتزامن مع ذكرى ميلاد السيد المسيح وأدى مراسم الحج، من صيدا رحل إلى مصر عبر غزة بحراً ورافق قافلة عبرت صحراء سيناء وصولاً إلى القاهرة وقد أدهشته هذه الأخيرة بما فيها من آثار حضارية عظيمة تعرف فيها على آثار مصر الفرعونية، أشاد بتاريخها العظيم القديم وأهراماتها المدهشة... وعند وصوله إلى دمشق أعجبه المدينة وجمالها وأدهشه نشاطها التجاري وبراعة الصانع ودقة الحرف اليدوية ومهارة الأطباء العرب.¹

ساهمت الرحلات التي كتبها الحجاج والرحالة الغرب الذين زاروا العالم الإسلامي والحواضر العربية في تشكيل مادة غزيرة ودقيقة في وصف العالم العربي وحضارته كما عبروا عن انبهارهم بالثقافة المشرقية وعلومها مما عزز الشعور بالحدق والغيرة تجاه المسلمين وانتشار سياسة التعصب .

وقد شكلت هذه الرحلات الأولى مادة خام وحافز لمجموع المدونات الوصفية لحضارة الشرق قام بها رحالون غربيون في شكل مذكرات يومية، كتب، أشعار، حملت صور مختلفة

¹ - إبراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار السافي، بيروت، ط2 1997 ص 16

للشرق عبر قرون، اتسمت بسمتين رئيسيتين أولهما إن هذا الشرق تمت رؤيته بأعين غربية، فكان شرقاً غربياً بامتياز، نظراً لسيطرة الفكر والثقافة الغربية ومن العبث البحث عن شرق واقعي في تلك الصور، أما السمة الثانية فهي إن هذا الشرق صور تلبية لحاجات الغرب وتأكيده لذاته، فالذات تتأكد من خلال نقيضها وهذا النقيض تأكيد لهويتها¹.

طغت السمة الذاتية على هذه الكتابات التي تعبر بكل عنصرية ورصد لا موضوعي عن موروث إنساني وفكر شرقي تم تحريفه، كما ساد عنصر الخيال هذه الكتابات لحاجة الغربيين إلى الخروج عن عالمهم الآلي إلى عالم الخيال والغرائبية المبهجة والمتحررة من كل قيود التفكير، ما يجعل هذه الصورة فاقدة لكل أنواع الواقعية فبدا بهذا الشرق عالم من نوع لا مألوف وغير صالح لحياة الإنسان المتحضر بالمفهوم الأوروبي.

وفي هذا الصدد يقول الناقد ادوارد سعيد: لقد كان الشرق اختراع أوروبي وكان منذ الزمن العابر مكاناً للرومانس أي قصص الحب والمغامرة والكائنات الغريبة... وليس فقط الخيال هو من رسم هذه الصورة بل القوة والسلطة المهيمنة هي التي فرضت هذه الصورة.²

غير إن هذه الصورة لم تأت من فراغ فقد كرس لها مفكرين غربيين كبار في الدين والأدب والسياسة، وأنتجوا نصوصاً كان لها التأثير الكبير في سير كتابة الرحلة نحو الشرق وزيادة جدة التوتر بين العالمين ومن بين هذه النصوص ما كتبه رجل الدين الفرنسي

Jacques-Bénigne Bossuet (1627 م – 1704) بوسويه*

L'islam ! Cette religion monstrueuse a pour toute raison son ignorance, pour toute persuasion sa violence et sa tyrannie, pour tout miracle ses armes, qui font

¹ - ينظر: ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية، ص 11

² - ينظر: ادوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر محمد العناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006، ص 42، 46

* - رجل دين، وخطيب فرنسي اكتسب جاك بينين بوسويه شهرة عريضة كواعظ كنسي، وكخطيب شعبي استغل الاستياء الاجتماعي، وكان اكليريكياً واسع العلم والاطلاع، وأصبح مربياً وأستاذاً خاصاً لابن الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا،³ترجمة صاحب البحث

trembler le monde et rétablissent par force l'empire de Satan dans tout l'univers¹.

الإسلام! هذا الدين الوحشي، جاهل لأسباب متعددة عن قناعة، لعنفه وطغيانه، معجزته السلاح التي تهز العالم وتستعيد بالقوة إمبراطورية الشيطان في كل الكون.²

كما وجه شاتوبريان خطاب شديد اللهجة عن الدين الإسلامي قائلاً:

Tous les germes de la destruction sociale sont dans la religion de Mohamed³

كل وسائل الدمار الاجتماعي هي في دين محمد.⁴

ارجع شاتوبريان كل مشاكل المجتمعات الإسلامية إلى الدين الإسلامي .

وفي قول آخر للعالم الرياضي ألكسيس دو توكفيل * Alexis de 1905-1899 Tocqueville الذي يزعم انه درس القران ومن خلال دراسته أكد أن الأزمات العالمية الإسلامية بسبب هذا الدين حيث يقول:

J'ai beaucoup étudié le coran je vous avoue que je suis sorti de cette étude avec la conviction qu'il y avait eu dans le monde a tout prendre peu de religions aussi funestes au Homme que celle de Mohamed elle est a mon sens la principale cause de la décadence aujourd'hui si visible du monde musulman je la regarde comme une décadence plutôt Qui comme un progrès⁵

¹– <http://mahomet.over-blog.com/2015/03/l-islam-commenter-par-les-grands-penseurs.html>

²– ترجمة صاحب البحث

³– <http://mahomet.over-blog.com/2015/03/l-islam-commenter-par-les-grands-penseurs.html>

⁴– ترجمة صاحب البحث

*– رجل دين، وخطيب فرنسي اكتسب جاك بينين بوسويه شهرة عريضة كواعظ كنسي، وكخطيب شعبي استغل الاستياء الاجتماعي، وكان اكليريكياً واسع العلم والاطلاع، وأصبح مربياً وأستاذاً خاصاً لابن الملك لويس الرابع عشر ملك فرنسا،

⁵<http://mahomet.over-blog.com/2015/03/l-islam-commenter-par-les-grands-penseurs.html>

لقد درست القرآن كثيراً، وخرجت منها بقناعة بأنه هناك في العالم أديان قليلة في العالم قاتلة للرجل مثل ديانة محمد، وهو في رأيي السبب الرئيسي للانحطاط الذي يظهر اليوم في العالم الإسلامي، أراه تدهوراً وليس تقدماً .

هكذا تجلت صورة الشرق في عيون الغرب فقد صوروها بكل عنصرية ولا موضوعية في رصد المجتمع الشرقي وكيانه، وكى لا نبلغ من العنصرية بمحل نذكر جهود كتاب ومفكرين كبار صوروا الشرق بصورة سامحة وعاطفة مسالمة و"هم نخبة من المفكرين والفلاسفة قالوا كلمة صدق عن الشرق والإسلام أمثال: يوهان غوته* 1749- 1832 تولستوي** 1828- 1910 جون جاك روسو***"1

*- هو أحد أشهر أدباء ألمانيا المتميزين، والذي ترك إرثاً أدبياً وثقافياً ضخماً للمكتبة الألمانية والعالمية، وكان له بالغ الأثر في الحياة الشعرية والأدبية والفلسفية، . وما زال التاريخ الأدبي يتذكره بأعماله الخالدة التي ما زالت أرفف المكتبات في العالم تقتنيها كواحدة من ثرواتها، وقد تنوع أدب غوته ما بين الرواية والكتابة المسرحية واهتم بالثقافة والأدب الشرقيين، واطلع على العديد من الكتب فكان واسع الأفق مقبلاً على العلم.

** تولستوي من عمالقة الروائيين الروس ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر أخلاقي وعضو مؤثر في أسرة تولستوي، يعد من أعمدة الأدب الروسي في القرن التاسع عشر والبعض يعده من أعظم الروائيين على الإطلاق من أعماله التي نالت شهرة واسعة: الحب والسلام، أنا كارينينا

*** هو كاتب وأديب وفيلسوف وعالم نبات جنيفي، يعد من أهم كتاب عصر التنوير، وهي فترة من التاريخ الأوروبي، امتدت من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

1- احمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء، مطبوعات وكالة الشعب، القاهرة، ط1 دت، ص5.

الفصل الثاني:

صورة الشرق في رحلة اليمن رحلة إلى صنعاء
لـ: رينزو مائزوني

تمهيد

أولا صورة الطبيعة بين الإيجاب والسلب

ثانيا : صورة الأماكن والعمران

ثالثا: صورة الكائنات

رابعا : صورة العبادات ، المعتقدات

خامسا : منظومة القيم العربية

سادسا : صور متفرقة من الحياة اليومية

سابعا : أفكار مسبقة ، أحكام مغلوبة

تمهيد :

تعد هذه الرحلة من الرحلات الغربية التي قصدت الشرق الغربي الإسلامي في الربع الثالث من القرن التاسع عشر 1877م، وهي مدونة للرحالة الايطالي رينزو مانزوني زار فيها اليمن وعمل على توثيق مادة مهمة ساهمت في التعريف بالتراث اليمني في تلك الفترة، في مجالات متعددة؛ تاريخيا، اجتماعيا كما أولى أهمية خاصة بالطبيعة والجغرافية...

كان القيام بهذه الرحلة وفق أسباب ودوافع متعددة، فقد شكل الشرق العالم الفضول للغرب ورسم الجو المختلف والمهرب من عالم مألوف إلى عالم مختلف ومثير لتساؤلات والحيرة، بدأ من النظرة التي رسمها مؤلف ألف ليلة وليلة في المخيلة الغربية، ومن هنا توالى الرحلات إلى الشرق وتنوعت بحسب الرحالة وخلفياتهم الفكرية والثقافية، ما أنتج لنا أدب رحليا زاخرا عمل على رصد الشرق والمكونات المشكلة له، مقدما صورا مختلفة انعكست بمستويات مختلفة بين السلب والإيجاب، بناء على هذا ساعمل على دراسة تجليات صورة الشرق في كتاب "اليمن، رحلة إلى صنعاء" محاولة تجلية صورة هذا الجزء من العالم الشرقي بالنسبة للرحالة الايطالي رينزو مانزوني وسأركز على أهم المعايير التي صورها الرحالة في كتابة وهي : صورة الطبيعة اليمنية، صورة المكان والعمران، صورة الإنسان الشرقي، العبادات والمعتقدات، أفكار وصور مغلوبة.

أولاً: صورة الطبيعة بين الإيجاب والسلب:

إن الدارس النص الرحلة يلاحظ سيطرة صورة الطبيعة على مجمل صفحاتها، ولا عجب في هذا فالرحلة أساساً انتقال في الطبيعة، وما يلفت النظر هو إعجاب الرحالة الكبير بالطبيعة اليمنية على الرغم من صعوبة تأقلمه من المناخ، إلا أنه لم يسترسل في وصف هذا الجانب بالقدر الكافي .

طالما عبر الرحالة عن إعجابه بطبيعة اليمن يظهر في قوله: "وبالفعل فإن العربية السعيدة هي جنة على الأرض ولينظر القارئ إلى الخارطة ليرى عدد المدن الموجودة في بقعة صغيرة من الأرض".¹

كما اهتم كذلك بالجغرافية اليمنية وعبر عن التنوع الجغرافي في المناطق اليمنية من مناخونباتات"طوال طريق انتقاله كنا نجد بين الحين والآخر مزارع مسورة فيها اللوبيا شوك الحمير والأرض الشوكي والخنس الأخضر والفجل القرع والجباب والحبنة والملفوف والثوم والبيض... وتتشر أشجار النخيل في كل مكان".²

وأشاد كذلك بتنوع المحاصيل الزراعية وكبر البساتين: "والبساتين والحقول الزراعية كثيرة، وأفضلها بستان الطاووس وهو كبير وفسيح فيه أشجار الفاكهة وكل أنواع الخضار والزهور وزراعة متقنة التنسيق".³

كما صور لنا إعجابه بسحر الطبيعة الشرقية والمنظر الجميلة فيقول: "تمتعت من شرفة عوبش بمنظر خلاب فمن الشمال إلى الشرق تمتد سهول الشاعرى الخصبة لتشكل سلسلة بلاد الشعيب (السوقية)".⁴

وكغيره من الرحالة فقد نالت شمس الشرق اهتمامه، وسحرته بأشعتها الصفراء تاركة أثراً نفسياً بليغاً عليه: "في المساء ظهر شعاع شمس ملقياً ضوءه على الغيوم ملونا إياها بالأصفر الشديد بحي تحول كل شيء إلى الأصفر الأرض والجبال والبيوت والرجال... وكان

¹ - رينزو مانزوني، اليمن رحلة إلى صنعاء، تر: شرين ايش، تحق: احمد ايش، ط1، هيئة

ابوظبي للسياحة والثقافة، ابوظبي، الإمارات، 2012، ص110

² - المصدر نفسه، ص57

³ - المصدر نفسه، ص175-176

⁴ - المصدر نفسه، ص86

أثره جميلاً، دام ربع ساعة على الأقل¹.

وفي موقع آخر يصف التأثير الذي تحدثه الشمس بالتقائها مع الضباب راسمة لوحة فنية جميلة وشاعرية "كان وادي الصوية شمالاً معرضاً للشمس، أما جنوباً فكانت أودية بلاد مريس والعود والشاعري كلها مغطاة بالضباب الأبيض فبدت من الأعلى وكأنها بحر من الجليد تتبثق عنها قمم جبال كأنها جزر نائية"².

كما أن لسحر القمر تأثير بليغ على الرحالة: "فوق الجبال كان القمر رائعاً ألقى بضوئه على مقبل والقافلة وعلي أيضاً... كان القمر يتلألأ في السماء وكان باستطاعتي تمييز كل شيء حولي ... الصحراء".

بعث منظر القمر هدوءاً كبيراً في نفسية الرحالة ما انعكس في الوقت نفسه على قارئ نص الرحلة.

تتوفر الطبيعة على مظاهر مختلفة أبهرت الرحالة وسحرته بتميزها واختلافها عن ما ألفه في بلاده.

كما أن للمناخ اثر كبير على الرحالة حيث انه لم يستطع تحنل قساوة الطبيعة اليمنية واختلافها، والتي يرى أنها بعيدة كل البعد عن الطبيعة الأم فيقول: "لم اقصد المبالغة في عرض ما أصابني لكن من واجبي أن احذر من يريد السفر إلى اليمن بان يأخذ الاحتياطات لان الطقس اليمني لا يلائم الأوروبي لذلك يتوجب عليه إحضار الفراش معه إضافة إلى الأغذية الصوفية"³.

لقد عكر الطقس في كثير من الأحيان صفو الرحالة ولم يستطع تحمل قساوته فيضيف "في بلد حار كهذا يحبذ النوم في الأكواخ لأن النوم في المنازل خانق بسبب الحر والرطوبة"⁴.

¹ - المصدر السابق، ص 136

² - المصدر نفسه، ص 281

³ - المصدر نفسه، ص 111

⁴ - المصدر نفسه، ص 132

جاء وصف رينزو للطبيعة جاف وخالي من الحيوية والمتعة وغياب الوصف الخلاق للمناظر الشاعرية، كما قدمه في صيغة تقريرية إعلامية ومن الملاحظ أيضا غياب الصحراء الشرقية ملهمة الرحالة الغرب التي لطالما كانت سبب إلهامه وزيارته للشرق .

ثانيا: صورة الأماكن والعمران:

للمكان حضور قوي في هذه الرحلة فوجد الرحالة يقدم صورا متنوعة انعكست بمستويات مختلفة حجما وتعبيرا، سلبا وإيجابا، إذ على الرغم من أن الكثير من الصور جاءت مبهجة إلا أن النفور سيطر على مجموعة منها .

يصف رينزو مدينة صنعاء قائلا: المدينة جميلة جدا بيوتها رائعة كلها مبنية بالحجارة المصقولة والأجر المشوي بشكل جيد وهي متينة لونها محمر وحجمها اكبر من تلك التي نجدها في الخرائب الرومانية.¹

هكذا بدت مدينة صنعاء لأول وهلة للرحالة أشاد بجمال عمرانها وأعجب بطرق بنائها.

كما يصف مدينة يريم: " تقع مدينة يريم على تلة ارتفاعها 2398 متر وهي مدينة جميلة تحيط بها الأسوار المنيعة وكانت المدينة الأولى الحقيقية التي أصادفها في اليمن".²

أعجب الرحالة بمدينة يريم من حيث شرط المدنية فقد وجد فيها الوسائل العامة التي جعلت منها مدينة بالشكل التام .

والملاحظ في أسلوب تصوير الرحالة هو غياب الموازنة مع الثقافة الناظرة على خلاف الرحالة الغربيين الذين كثيرا ما يستدعون الـ هناك

كما نالت البيوت حفا وافر من النص الرحلي، فقد اهتم رينزو بالبيوت في مناطق عديدة من مسار رحلته بداية من البيت الأول الذي استقبل فيه "منزل حسن علي بك منزله جميل مربع الشكل غرفه واسعة ومريحة وهناك سطيحة على الطابق الأرضي وشرفة تحيط بالطابق العلوي من جميع جهاته و تتوسطها حديقة جميلة".³

¹ - المصدر السابق، ص 142

² - المصدر نفسه، ص 127

³ - المصدر نفسه، ص 40

كما يوازن بين بيوت القرى وبيوت المدينة من حيث المستوى الاقتصادي ومستوى الحياة الاجتماعية، ويلاحظ أن هذه الأخيرة أكثر رخاء وأناقة حيث يقول: "كما في كل أنحاء العالم فان بيوت الحوطة أوسع وأكثر جمالا وأناقة من بيوت القرى، ذلك أن السكان وهذا ما ينطبق على اليمن أيضا هم أكثر فقرا في القرى بينما ترى مظاهر الثراء والرخاء في المدن فقط".¹

وفي موضع آخر أشار إلى أن العمران اليمني والشرقي عموما يبني بالطريقة الإسلامية ووفقا للعادات العربية بحيث تصبح له خصوصية وانفراد "فتبنى بشكل غير متناظر حيث لا يسمح لمن في الخارج برؤية من في الداخل وبشكل عام فالبيوت ليست واسعة ذلك أن عائلة واحدة تشغلها تلك هي عادات المسلمين والسبب هم نساؤهم فهم يعزلون العائلة للمحافظة عليها ويغارون ويضعون كل عاطفتهم فيها... لذلك تبنى البيوت بهذا الشكل أي وفقا للعادات الإسلامية حي توزع الغرف الداخلية بطريقة معينة أيضا ويتقنون في مظهرها الخارجي مما يعطيها سمة تميزها عن باقي الديانات الأخرى".²

تصمم البيوت العربية بطريقة مخالفة ومميزة وهذا بما يتماشى مع خصوصيتهم الاجتماعية التي تعزل العائلة وتعتبرها شيء خاص، وبهذا تعبر عن الطابع الإسلامي وهذا ما لفت انتباه رحالتنا في العمران الشرقي.

كما ركز كذلك على تفاصيل البناء "فواجهات البيوت تحتوي على نوافذ صغيرة ذات قضبان تشكل شبكة بالأسود والبني المحمر وهي تسمح بمرور الهواء والضوء اللازمين لتهوية الغرف إلا أنها تمنع في الوقت نفسه الناظر من الخارج أن يرى ما في الداخل".³

ولسوء حظ الرحالة فإن منزل إقامته في صنعاء بداية لم يكن مريح، بل ولم يحمل أي من شروط الحياة؛ "الإأن مسكني الجديد هذا كان مهجورا منذ فترة طويلة لذلك كانت الفوضى تعم أرجاءه وكان وسخا وملينا بالغبار فانصرف اهتمامي الأول إلى تنظيفه وترميمه... وبسبب تغيب العاملين أمضيت ليلة رهيبية".⁴

وهو المنزل الوحيد الذي ضاق فيه وأحس في بالانزعاج لأنه غير مجهز.

¹ - رينزو مانزوني، اليمن رحلة إلى صنعاء، ص50

² - المصدر نفسه، ص52

³ - المصدر نفسه، ص52

⁴ - المصدر نفسه، ص147

ومما أثار غيظه في مدينة صنعاء هو منظر تصريف المياه التي تلوث الجو وتتاقضه مع عمران المنازل الراقى، وهي برأيه تخدش شعور المسافر الأوروبي الذي لم يعتد على هذا المنظر فيقول: لكن هناك ما يصدم المسافر عند دخوله صنعاء مباشرة... هو أفنية تصريف المياه القذرة من المنازل الخارجية والمحفورة في الجدار لكنها مفتوحة دائما باستثناء بعض المنازل التركية الفخمة فكل بيوت صنعاء تحتوي على خطوط بيضاء هي ممر تلك الأفنية ويشاهد وسطها انسياب الماء الوسخ من الأعلى¹

رؤيته لهذا المنظر الذي وصفه بالمقزز جعله يستدعي صورة من الـ هناك لأنه لم يعتد على مثل هذا الاتساخ: "لم أر في حياتي ما يدعو للقرف والشعور بالإعياء أكثر من هذا المشهد فبالإضافة إلى تلويث الهواء بالرائحة وتتاقضه مع لزخرفة الأنيقة للمنازل فهي تخدش شعور المسافر الأوروبي الذي يصل لتوه من الخارج".²

تكون نظرة الاستعلاء دائما مصاحبة للرحالة الغربيين باعتبارهم ثقافتهم هي المركز والثقافة المنظورة هي الهامش، فالرحالة يعتبر المدن الأوروبية أنظف المدن على عكس المدن العربية التي تتناقض مع عالمه المثالي .

ومن بين المنازل التي صورها الرحالة أثناء انتقاله هي منازل اليهود والتي أشاد بنظافتها وترتيبها من الداخل على عكس الخارج الذي شبهه بمنازل الحطابين والأكواخ فيقول: "والمنازل من الخارج بأسة جدا فهي مصنوعة من الطمي والروث وليست عالية بل تحتوي على طابق فقط مع نوافذ صغيرة غير مرئية وتبدو كالأكواخ أكثر منها منازل... إما داخل تلك البيوت فجميل يذكر بباحة دار المنزل الاسباني أو المغربي أرضيته مكونة من قطع كبيرة من الحجارة والغرف الواسعة والمضيئة والنظافة تعم المكان".³

لطالما يشيد الرحالة بنظافة المنازل العربية إلا انه لا يبرح حتى يعلي من شأن الآخر الأوروبي، مستحضرا إياه في كل ما هو ايجابي .

كما نالت الشوارع نصيبا من وصف الرحالة حيث يقول: فشوارع صنعاء عريضة

¹ - المصدر السابق، ص146

² - المصدر نفسه، ص146

³ - المصدر نفسه، ص182

ومنتظمة والخط المستقيم شهير عند المهندسين في صنعاء والشوارع واسعة يسمونها المسحرة والأكثر أناقة يسمونها المحجة والأقل اتساعا الشارع والأصغر الزقزي.¹

كما اهتم رينزو بالحمام الشرقي وخصص له الكثير من ورقات الرحلة وبشيء من التفصيل، معبرا عن الراحة والنظافة الفائقة التي يعطيها للإنسان؛ "يعطي الحمام الشرقي للإنسان بالإضافة إلى النظافة شعورا بالنشاط العام، ويدلك الجلد ويجعله نظرا زهري اللون، ويسرع الدورة الدموية والتعرق الجلدي الذي يحفظك من أمراض عدة وأخيرا يجعلك تشعر باستجمام لا يمكن وصفه حتى أنك تشعر بالليونة والخفة المتناهية وكأنك رفعت عن كاهلك حملا ثقيلًا وتشعر وكأنك ولدت من جديد وأن الروح والجلد طهرا كما تظهر الجسد".²

أخذنا الرحالة بهذا التصوير إلى جو يفيض راحة واسترخاء، مجليا فوائد الحمام بالنسبة للإنسان.

كما لم يفت مانزوني التحدث عن المستشفى التركي الذي سرعان ما استحضر فيه صورة من ثقافته فيقول: "سأتكلم باختصار عن المشفى التركيho بناء كبير ورائع على الطراز الأوروبي يحتوي على طابقين مع أروقة عريضة وعشرين غرفة للمرضى... أما النوافذ فهي عالية وعريضة وعليها زجاج على الطريقة الأوروبية وستائر ملونة للتخفيف من حدة الضوء والخدمة ممتازة".³

استحضر لنا مانزوني صورة من ثقافته متجلية في المستشفى التركي الذي شبهه بالطراز الغربي في رقيهوأناقته.

ومن الأماكن المهمة التي صورها لنا الرحالة بحكم دخوله الكثير من المنازل الشرقية هو وجود شقةمخصصة للنساء تسمى مكان الحريم ومفصولة عن تلك التي يسكنها الرجال يقول: "يعم مكان الحريم نظام صارم واحترام فهو المكان الذي يضم والدة وزوجات وبنات وأخوات رجل البيت، وأكد للقارئ بان المكان يشبه دير الراهبات وليس دار المتعة في هذا المكان يتعلم الأولاد احترام الله والناس والبنات كيف يحافظن على شرفهن ويتعلمون احترام الأم

¹ - المصدر السابق، ص159

² - المصدر نفسه، ص169

³ - المصدر نفسه، ص179-180

والزوجة والأخت، أما في أوروبا فيعتقد خطأ بأن الحريم هو مكان المتعة والعواطف المستباحة"¹.

قدم لنا التفسير الصحيح لمكان الحريم وبحسبه فإن يعتقد في أوروبا بأن الحريم مكان للتسلية والفجور وإشباع الشهوات وهذا اعتقاد خاطئ على الإطلاق فهناك تسكنزوجات وأهلصاحب المنزل والحشمة الصارمة والانضباط الشديد يسيطران على المكان الذي يشبه دير الراهبات في أوروبا.

كما يقول: "وبالإضافة إلى أهل صاحب البيت فهناك الكير من الخادمت اللاتي لصاحب البيت رؤيتهن إذ لم يكن يمتلكهن فالخادمت إذن ليسوا هناك لإشباع رغبة الزوج إنما لمساعدة زوجتهن خادمة باللباس وأخرى بتهيئة السفرة وأمور المطبخ وأخرى للغسيل والحيافة"².

كما يقدم وصف لعمران الحريم فيقول: "ونوافذ مكان الحريم مغطاة من الخارج بألواح من الخشب المثقوب على أشكال مختلفة ومهمتها منع نظرات المارة الفضولية والجريئة وبهذا فمكان الحريم يحظى بخصوصية واحترام كبيرين عكس ما هو شائع"³.

ثالثا - صورة الإنسان

تعددت صورة الإنسان الشرقي في نص رحلة مانزوني واختلفت بحسب كل شخصية وحضورها في الحياة فقد ميز بين ثلاث فئات اجتماعية شرقية: العرب والقبلي والبدومع وجود أجناس أخرى من يهود وأتراك... مجليا الصفات الجسدية والروحية لكل إنسان.

غير أن الملاحظة التي يمكن تسجيلها هي الرحالة تعامل مع كل هذه الأجناس بكل موضوعية وحاول التعرف على كل الفئات البشرية العربية بعدم تحيز فهناك النبلاء والفلاحون والمتقنون والمحتالون... كما نظر للعرب دون حساسية مسجلا ما هو واقعي بطريقة علمية بحتة تخلو من أي ذاتية.

¹ - المصدر السابق، ص 237

² - المصدر نفسه، 237

³ - المصدر نفسه، ص 237

و نظرا لتشعب الصور وكثرتها وجب علينا حصرها وتبويبها حتى تكون واضحة أكثر:

1- صورة العربي:

لا بد من الإشارة أن الرحالة ميز كثيرا بين العربي/ البدوي/ والقبلي، لكنه في كثير من الأحيان ما كان يشملهم بالوصف الواحد العربي فيقول: العربي من الدم الصافي، ويرجع نسبه إلى قحطان الذي ذكر في سفر التكوين، ويعيش في المدينة ولون بشرته فاتح، هو أكثر ذكاء من إخوته وتصرفاته أكثر لينا¹

صور لنا مانزوني العربي بطريقة ايجابية دون تهكم من شكله ولا من صفاته، والاهم انه قدم لنا أصله بالطريقة الصحيحة، فكثيرا من الرحالة العنصريين يجعلون العربي في مرتبة دونية همجية ناكرين أصله .

أما القبلي فيقول عنه: "القبلي صفة اسمية من القبائل، وتعني رجل القبيلة وهو عربيا أيضا صافي الدميعيش في الجبال ولونه داكن وهو اقل ذكاء من العربي الحضري، ولكنه شجاع وقوي يحب العمل وكريم وهو كالفلاح عندنا".²

يقارن الرحالة بين القبلي والعربي فبالرغم من اشتراكهما في أصلهما الصافي الذي لم يهجن إلا أن العربي يتميز بقوة الذكاء عن القبلي ما أن هذا الأخير أكثر شجاعة، من الممكن أن يكون هذا الاختلاف بسبب اختلاف البيئة المعيشة، فالبيئة البدوية تقتضي على الإنسان أن يكون أكثر شجاعة وقوة لمواجهة صعاب الحياة الطبيعية.

كما يورد الرحالة وصفا للبدوي مجليا صفته ومعبرا عن مختلف الميزات التي تجعله في اختلاف عن الأجناس البشرية الأخر فيقول : أما البدوي من البادية او الريف فهو عكس الحضري الذي يقيم في مكان سكن ثابت، يسكن البدوي الصحراء وهو من الرجل ولون بشرته بني احمر مائل إلى السواد ومع زعمه بكونه عربيا أصيلا فأعتقد انه مهجن ينحدر من اختلاط العرب بالحجريين.³

¹- رينزو مانزوني، اليمن رحلة إلى صنعاء، ص62.

²- المصدر نفسه، ص63.

³- المصدر نفسه، ص63.

على حسب الروايات التاريخية أن القبائل البدوية القديمة لا تقبل الاختلاط مع الأعراق الأخرى فهي تعتني بقضية النسل والنسب وتهتم بها اهتماما كبيرا .

وعلى غرار هذا الوصف الذي يشوبه الكثير من الشك فإن الرحالة يشيد بالخصال الحميدة للبدوي فيقول: والبدوي رجل حر كل ما فيهبوحي باستقلاله وشكله جميل... والبدو بسطاء يعيشون على القليل من الحليب والتمر في طعامهم اليومي، لا يشربون الخمر والكحول وبسبب حياة التقشف تلك لا يصابون بالإمراض ويعمرون .

تتميز حياة البدو بالبساطة في جوانب كثير تتعدى حتى الحياة اليومية ومختلف الممارسات، فيعتمد قوتهم على الشيء البسيط والمغذي مما يجعلهم في صحة بدنية جيدة .

كما يفند الفكرة الشائعة عن البدو "من الخطأ الاعتقاد بأن البدو متوحشون فهناك قبائل تغزو وتسطو إلا أنها تتميز بالنبل والكرم".¹

وبحكم اختلاطه الكبير معهم لاحظ أن الموروث الفكري القديم يختلط مع معتقداتهم الدينية ما جعل إسلامهم بدائي فيقول: أنهم مسلمون ولكن إسلامهم بدائي ويختلط مع عاداتهم القديمة.²

تبدو هذه المقولة اقرب إلى الحقيقة فالبدو بحكم بساطة عيشهم تجعلهم يتعاملون بسطحية مع الأمور الدينية والدنيوية ما اكتشفه الرحال من خلال معاشته لحياتهم اليومية.

نستشف من خلال تصوير الرحالة محبته للإنسان العربي البدوي فقد عكس لنا قداسة طباعه والتي من بينها: " تعلمهم حياة الرعي نقاء الطباع فالبدوي يعرف الحب ولا يعرف الخيانة وتعدد الزوجات ولا يمكن إغواء النساء بينهم بل الزواج هو الرابطة الحقيقية التي يحترمونها".³

ولقد أورد لنا مثالا عن صديق له تتجلى فيه كل خصال الحسنة والأخلاق الحميدة المميزة للإنسان البدوي: "و عوبش صالح عربي أصيل قبيلي وشخص ظريف مربع القامة ولكن جسده متناسق وهو شخص صريح وصادق، وكان مضيافا معي وصديقا ممتاز

¹ - المصدر السابق، ص63

² - المصدر نفسه، ص65

³ - المصدر نفسه، ص64

أعطاني غرفة صغيرة نظيفة في بيته استطيع ترتيب إغراضي فيها... و كان يبعث إلي وإلى مقبل بالخبز والعسل كل صباح وحساء ولحما في المساء والقهوة ثلاث أو أربع مرات في اليوم... ولم يكن يقبل أي مقابل بل على العكس كان يسهر على تلبية رغباتي كلها وكان يأتي من وقت لآخر يسألني إن كنت محتاجا لأي شيء.¹

وبصفة عامة فالرحالة أعجب بالعرب الذين صادفهم وبسماحتهم فهم "أنيقون ووقورون ولا يكثرثون بوجود أجنبي بينهم " ².

2- صورة اليهود:

يعيش يهود اليمن في مدينة خاصة وهي مدينة الحوطة والتي تحتوي على حيهم أو قاع اليهود وكأي رحالة فقد اهتم مانزوني بيهود الشرق وصورهم لنا غير أن هذه الصورة لا تخرج عن كونهم قبيحين المظهر على الرغم كياستهم: " يترك الرجال شعورهم تتدلى أما أذنانهم على شكل خصلة مفتولة طويلة فهي رمز اليهود ما يجعلهم في منتهى الدمامة " ³

كما يفسر في موضع آخر سبب هذا القبح فيقول: "و يهود صنعاء بشكل عام دميمون جدا لأنهم نحيلو الجسم وكأنهم عصي ولونهم مصفر".⁴

غير أن قبحهم لا يعني أنهم فاشلون، فهم صناع بامتياز ويحبون العمل وكسب العيش فيقول: "ولكنهم حرفيون دعويون منهم الصياغ وبائعو المجوهرات وهم بارعون في تقطير ماء الحياة".⁵

وبالمقارنة مع يهود المغرب، فيهود صنعاء أكثر نظافة وكياسة ولباقة: "فهم لا يشبهون المغاربة على الإطلاق في قذارتهم، بل أن بيوتهم نظيفة ولباسهم أيضا " ⁶.

¹- رينزو مانزوني، اليمن رحلة إلى صنعاء ، ص 87

²- المصدر نفسه، ص 142

³-المصدر نفسه، ص 121

⁴-المصدر نفسه، ص 183

⁵-المصدر نفسه، ص 183

⁶-المصدر نفسه، ص 121

يتعامل العربي مع اليهود بكل سماحة وحسن عاطفة على عكس المغاربة: "والعربي في صنعاء ليس متعصبا لذلك لا يضطهد اليهودي كما يفعل المغاربة ففي صنعاء يعاملون معاملة حسنة"¹.

3- صورة الأتراك :

صادف مانزوني في ضباط أترك أثناء رحلته من عدن إلى صنعاء كون اليمن تلك الفترة كانت تحت الوصاية التركية إلا انه لم يطل في شرح هذا الجانب .

يقول عن احد الضباط الأتراك: " التقى بالكثير من الضباط الأتراك الذين يتركون بعد مرورهم رائحة زكية " ².

كما يشيد بالأخلاق الفاضلة لحاكم اليمن التركي عاصم باشا: " يتأسس البلد حاكم عام لليمن أو هو شخص مثقف ومتعلم يتقن الفرنسية وعاداته وتصرفاته نبيلة"³

4- نساء صنعاء :

مر الرحالة مانزوني بالعديد من المناطق أثناء رحلته من عدن إلى صنعاء ما جعله يهتم بتصوير نساء هذه الأماكن.

ولعل الصورة الأكثر تفصيلا للمرأة العربية هي صورة نساء القبلي اللائي يتمتعن بالحرية التامة وغير متحجبات كباقي العربيات؛ "وهن متوسطات الطول ويتمتعن بالأناقة وتناسب الشكل ويتمتعن بنفس قوة الرجل الجسدية يتقاسمن معه العمل والمشاق وعيونهن سوداء عميقة ذات أهداب طويلة سوداء ونظرتهم جذابة وكلها حيوية إضافة إلى ذلك فانفهن صغير وطويل وشفاههن ممتلئة وأسنانهن ناصعة البياض...وصوتهن العذب يدخل القلب دون استئذان مع تعبيراتهن المحببة ولطفهن"⁴

يرى الرحالة انه على الرغم مما تتحمله النساء القبليات من مشاق العمل والمسؤوليات، إلا أن هذا لا ينقص من جمالهن شيء فهن يتمتعن بفيض من الجمال والجاذبية، وقد عبر

¹- رينزو مانزوني، اليمن رحلة الى صنعاء ، ص 183

²- المصدر نفسه، ص143

³-المصدر نفسه، ص144

⁴-المصدر نفسه، ص92

في الكثير من الأحيان عن إعجابه بهن، فيقول: "قلت مرة لمقبل عن زوجة ثابت العربية قد ما أشوفها وهي تحلى في قلبي".¹

هذا الإعجاب يختفي عند رؤيته لنساء المعبر حيث يقول: "تلبس النساء في تلك البلاد، فوالسرورال الذي يغطي الأرجل النحيلة ثوبا قصيرا واسع الأكمام، وهن دميمات جدا".²

كما لم يستحب مظهر اليهوديات اللاتي يعشن في صنعاء فيقول عنهم: "أما اليهوديات في ذلك الوادي وبشكل عام فهن دميمات جدا وزيهن كزي نساء القبلي، ولكنهن لا يضعن أي زينة خارجية كالأقراط أو العقد أو الخاتم"³

أما بالنسبة للنساء العربيات في المدينة فهن أكثر جمالا من نساء البادية كما لا توجد عندهم الصفات الرجولية الموجودة عند نساء القبلي اللاتي يتقاسمن الحياة مع الرجال: "وهن جمالا بشرتهن افتح من بشرة نساء القبلي والبديوات وهن أكثر طاعة وتعرف زوجات الأغنياء من منازلهن ومكان الحريم فيها وتبدو مظاهر الثراء من ملابس قميصهن الحريري الناعم الملون بالأبيض والزهر أو الأزرق والأصفر المطرز من الأمام والموشى بخيوط الذهب والأحجار البراقة".⁴

كما أن نساء المدينة متحفظات على عكس نساء القرى اللاتي هن على جانب من التحرر فيرتدين الحجاب الذي يغطيهن بالكامل فلا ترى أي ملامح لهما في الخارج حيث يقول مانزوني: "و في الطريق تلبس النساء جميعا ومن مختلف الطبقات فوق ملابسهن غطاء كبيرا من القطن الشائع لونه داكن ويغطيهن من الأعلى إلى الأسفل".⁵

يرى الرحالة أن هذا النوع من الزي يعبر عن نوع من الخضوعكونه مناقض لثقافتها المتحررة وعاداته ومخالف لما رآه في القرى فيقول: "في يريم تلتقي بالنساء المحجبات إلا أنهن يرجعن الخمار حالما يدخلن إلى البيت ولو كان هناك رجال يبين هذا الزي مدى الحرية التي تتمتع بها نساء من القبل ومظهر القسر الذي تخضع له نساء المدن والنساء

¹ - المصدر السابق ، ص93

² - المصدر نفسه، ص110

³ - المصدر نفسه، ص121

⁴ - المصدر نفسه، ص235

⁵ - المصدر نفسه، ص236

العربيات في صنعاء".¹

وبصفة عامة فالنساء العربيات على جانب من الخلق العفيف والحياء وهذا ما صرح به مانزوني حيث قال: "والواقع ن الشابات العربيات يحتفظن بعذريتهن فهن مؤدبات وأخلاقهن حسنة".²

رابعاً: صورة العبادات، المعتقدات:

في البداية يعترف الرحالة بفضل الدين الإسلامي على الثقافة والحضارة ويشير انه من الخاطئ الاعتقاد أن الجهل في البلاد الإسلامية سببه الدين، بل وان كثير من الحضارات الإسلامية في العصور الوسطى كانت في أوج ازدهارها وسيطرتها وهذا يمثل شهادة مميزة من رحالة غربي ترعرع وسط أفكار عنصرية تحصر الشرق عموماً في صورة الجهل الديني الإسلامي.

فيقول: "وإذا كان الجهل يسود في تلك البلاد، يخطئ من يعتقد بأن السبب هو الدين الإسلامي فهناك نصوص كثيرة في القران تحث على العلم وتوصي بالثقافة والكل يعلم ما ترك خلفاء بغداد والحضارة الإسلامية في اسبانيا من منجزات".³

كما يقر أن الكثير من السلوكات الحميدة كالجود وكرم الضيافة هي بفضل الدين: "

فالضيافة العربية مشهورة جداً ويحث عليها الدين الإسلامي كما انه دين تسامحين أي أجناس وقد نشر هذا في نفوس المسلمين ولهذا مهما كان دينهم يستقبلون بطريقة ممتازة ويرحب بهم".⁴

كما أن العرب متمسكين بدينهم وهو نوع من الممارسة اليومية فيلاحظ المرء مدى تأثير الدين عليهم خاصة في أحاديثهم وهذا ما جذب اهتمام مانزوني فيقول: "يتشرب العرب كجميع المسلمين تعاليم دينهم بشكل كبير وفي أحاديثهم يستشهدون بعبارات من القرآن وأقوال

¹ - رينزو مانزوني، اليمن رحلة الى صنعاء ، ص 129

² - المصدر نفسه، ص 240

³ - المصدر نفسه، ص 91

⁴ - المصدر نفسه، ص 91

الرسول ويذكرون الله كثيرا" ¹.

كما يقدم الرحالة وصفا وافيا للأجواء الدينية في رمضان الذي يعد شهرا للانضباط والمساواة بين جميع فالجميع يتمتع من الأكل والشرب عند البلوغ لسن معين: "رمضان أو رمضان كما يلفظه الأتراك هو صيام صارم يفرض على كل مسلم بلغ الرابعة عشر من عمره القيام به" ². كما لا يخرج المسلمون عن قواعد الصيام ويتجنبون المفطرات غير الأكل والشرب كالتدخين ... "تتبع التعاليم الدينية بحذافيرها ولا يخرج عنها إلا القليل جدا من العرب وان فعلو فيكون سرا والامتناع عن الطعام لا يعني فقط الأكل والشرب إنما التدخين أيضا وحتى استنشاق العطور" ³.

يختلف الصيام بين عرب المدينة والبدو، فالبدو لا يتبعون قواعد الصيام بصرامة وهذا ما لاحظته الرحالة من خلال مقابله لإحدى البدويات التي دخت في شهر رمضان فيقول:

"كان هذا خرقا لقوانين رمضان وان كان عرب المدينة يتبعون الصيام بصرامة فلا يعير البدو أهمية كبرى له ولا يتبعون تعاليم القرآن بحذافيرها" ⁴.

كما يصور لنا الجو الروحي الذي يخلقه رمضان والشعور المميز الذي لا يوجد إلا في البلاد العربية: "ما يكاد يأتي المساء إلا ويستيقظ الجميع وتدب الحياة، فتملأ الأسواق وصالات القهوة وتعاود المداعة نشاطها الصاخب، أما الصوامع المضيئة فتدل من بعيد على ان الحياة تنشط فالليل وأن الناس الذين طال صبرهم قد بدعوا بالأكل والشرب في الوقت الذي يجب أن يخلدوا فيه للراحة وتظهر النساء على الشرفات وعلو نغم الأغنيات الجميلة وصيحاتالفرح وتثار أضواء الأحياء الضيقة التي تتصارع مع الظلام وهذا ما يعطي البلاد العربية هيئتها المميزة التي من الصعب أن تجدها عندنا" ⁵.

¹ - المصدر السابق ، ص 234

² - المصدر نفسه، ص 49

³ - المصدر نفسه، ص 49

⁴ - المصدر نفسه، ص 59

⁵ - المصدر نفسه، ص 50

من الملاحظ أن تأثير الأجواء الدينية الرمضانية كان له الأثر البالغ على نفسية مانزوني، كما تبين انه تقبل الأجواء الدينية العربية بصدق وحب ونفسية محبة لكل ما هو روجي على عكس الكثير من الغربيين الذين يرون في التعاليم الإسلامية نوع من الخرافة والجهل، أمثال شاتبريان الذي لا يتقبل حتى صوت الأذان.

كما لاحظ مانزوني غلبة المعتقدات الخرافية على تفكير العرب بالرغم من كونه شعب متدين ومن هذه الخرافات: "إيمانهم بالجن وهو جنس بين البشر والملائكة خلقوا قبل ادم من نار وقوتهم تمتد إلى الطعام يأخذون إشكالا مختلفة وتقول الخرافات التي مازال يصدقها العرب المعاصرون أن الجان يشارك في الطبيعة الإنسانية الجسدية ولقد انتقلت تلك الأساطير من العرب غير المسلمين إلى المسلمين الذين يؤمنون باله واحد"¹

كما أنهم يؤمنون "بالعين الحاسدة أو العين الشريرة ويتجنبونها ويتخذون الاحتياطات لدرئها ولذلك فهم لا يعبرون عن إعجابهم بشكل مفرط وإذا عبروا قالوا ماشاء الله"²

وذكر الرحالة أن العرب المنتمين إلى الطبقات الدنيا كانوا يقبلون على العرافين لتنبؤ بالحظ التعيس أو السعيد أما الذين ينتمون إلى الطبقات الثرية كانوا يؤمنون فقط بعلم النجوم: "والطبقة العامية من العرب التيلا تعرف القراءة والكتابة تؤمن بالحظ والسحر وقراءة الحظ، الذين ينتمون أيضا إلى تلك الطبقة يؤمنون بالطالع السيئ أو الحسن أما الذين ينتمون هم أيضا إلى الطبقات العليا الثرية فلا يريدون وسطاء جهل ولكنهم يأخذون بعين الاعتبار علم النجوم أو التجيم"³.

وكذلك كان لأهل اليمن أيام حظ وأيام يسودها سوء وعند العرب أيام مباركة وآخر مشئومة؛ " فنقام الأعراس أيام الاثنين والخميس يسمى المبارك، والجمعة يذكر الناس ببدء الإسلام على الأرض وهو أفضل الأيام أما الأحد والأربعاء أيام خارج الحسين أما الثلاثاء هو يوم مشئوم لان القسم الأعظم من الشهداء المسلمين قد ماتوا في هذا اليوم"⁴.

¹-المصدر السابق، ص246

²- المصدر نفسه، ص247

³- المصدر نفسه، ص249

⁴-المصدر نفسه، ص250

خامسا: منظومة القيم العربية :

في كثير من الأحيان ما أشاد الرحالة بالخصال والقيم العربية المتميزة، من خلال احتكاكه مع المجتمع الإسلامي وتعامله مع مختلف فئاته وقد بين مدى رقي وحضارة الإنسان العربي معبرا عن سماحته مع الآخر.

يؤكد الرحالة على وجوب الصدق في البلاد العربية فيقول: "من الأفضل لك في الشرق أن تكون صادقا"¹.

كما صور في كثير من مواضع الرحلة كرم وجود الإنسان الشرقي مشيدا بحسن ضيافته فيقول عن صديقه: "علي جاءني الكثير من العرب في ذلك اليوم ومنهم علي وهو رجل طيب وإلى جانب كرمه كانت صحبته جميلة وحراسته دقيقة في حردبة وبعد علي كان احمد ومحمد من الجلييلة وعرب آخرون كان لديهم حمير محملة بالتبغ والبضائع طلبوا الانضمام إلي عرضين الحماية"².

كما يعزز موقفه بقوله: "وليس هناك ما يدعو للعجب فالبدو كرماء يحترمون ويستضيفون الغريب الذي يزورهم ويعتبرونه ومن معه شيء مقدسا وهذا ما يفسر رغبتهم بالمضي معي فلقد كانوا متأكدين من أنهم سيلقون ضيافة جيدة"³

ولكنثرة اهتمام العرب بالغريما يعطيه شهرة وسطهم وهذا ما اكتشفه الرحالة :

والواقع انك تحتاج إلى القليل فقط لتحصل على الشهرة الكبيرة وسط أناس طبيين وبسطاء.⁴

كما يقارن قيم عرب اليمن بأهل المغرب فيقول: إن عرب اليمن من البدو و القبلي أكثر كرمًا من أهل المغرب.⁵

¹-رينزو مانزوني، اليمن رحلة الى صنعاء، ص48

²-المصدر نفسه، ص60

³-المصدر نفسه، ص90

⁴-المصدر نفسه، ص90

⁵-المصدر نفسه، ص99

تتجلى الخصال الحميدة والاحترام المتبادل داخل مؤسسة العائلة العربية: فالأب هو الرئيس الذي يتمتع بالسلطة الكاملة على الزوجة والأولاد الذين ينفذون أوامره ويحترمونها...ومعاملة الزوجة لزوجها هي الاحترام.¹

وبالمقابل فالزوج أو الأب يبادل عائلته وزوجته بنفس الاحترام والإحسان بما أملاه ديننا الحنيف: "يعامل العربي زوجته أو زوجاته برعاية كبيرة وبما هو جميل ونفيس يخصص للحريم، فهو يريد لام أولاده أن تعيش براحة".²

كما يحترم العرب مؤسسة العائلة ويقدمون قوامها ويعملون على المحافظة عليها بتعزيز روابط المحبة فيها والاحترام بين أفرادها وهذا ما قاله الرحالة: "وروابط العائلة متينة إلى درجة اعتبار القسم الأكثر تقديسا هو القسم باسم احد الأفراد الأموات أو الأحياء".³

وأوضح مانزوني أن مفهوم الاحترام بين العرب لا يعتبر خضوعا وذلا إنما هو نتيجة⁴ لتقدير ومحبة على عكس ما في الثقافة الغربية فالاحترام عندهم يتولد من الجبر يقول: "لا يتسم هذا الخضوع بالخنوع الموجود في بلادنا التي تعتبر متحضرة وحررة فنحن نكتب في رسائلنا أو نصرح بصوتنا عبارة خادمكم المتواضع أما عند العرب فالاحترام عند العرب هو كناية عن المحبة فمجتمعهم يجعل منهم أسرة واجدة توحدتها القرابة".⁵⁴

ولا يتفانى مانزوني عن ذكر الخصال الحسنة للعربي فيقول: "يظهر العربي الخجل بشكل عام وأما الصعاب يتحول الخوف جرأة وتستيقظ فيه الشهامة والحيوية أما الأحران والمصاعب فاستسلامهم لها قوي ويخضعون بالكامل أمام أي حدث ويعتبرونه قدر الهيلحقه الله بهم".⁶

¹-المصدر السابق، ص228

²-المصدر نفسه، ص237

³-المصدر نفسه، ص229

⁴-المصدر نفسه، ص229

⁵-المصدر نفسه، ص230

سادسا: صور متفرقة من الحياة اليومية :

نستشف في ثنايا الرحلة صورا من حياة الرحالة في العربية السعيدة ومحطات يومية من سير رحلته من عدن إلى صنعاء بمختلف نشاطاتها التي مارسها أثناء إقامته في مناطق مختلفة.

• سير الرحلة:

بداية يصور لنا الرحالة منظرا من سير القافلة التي انتقل على متنها من عدن إلى صنعاء ورتابة السفر خاصة على المسافر الأوروبي الذي لا يعرف لغة القوم يقول: "عندما تسير القافلة يخيم الهدوء، فلا تسمع إلا ضجيج الحمولة وه تتحرك على وقع خطى الجمل الوئيد وفي حالات نادرة يقوم الجمالون صغار السن الذين يتمتعون بالحيوية والنشاط بالحداء من مقدمة القافلة، فينشدون أغاني بدوية فرحة، أما المسافر فيصاب بالملل لان التقدم بطيء ورتيب وحزين، يصاب المسافر الذي لا يعرف لغة القوم بالملل وتعثره الكآبة والإحباط فيشغل نفسه بالانتباه الى الأغراض، ذلك ان الصمت الإجباري يجعله يصاب بالتعب النفسي"¹.

كما أعجب بالقهوة اليمنية التي صاحبته في سير رحلته: "والقهوة التي تسمى أيضا القشر ذات لون ذهبي اشق راما طعامها فلفذيف ويفضل على الشاي"²

• الثقافة المطبخية :

صور لنا مانزوني العادات المطبخية والطعام عند العرب وبين اختلافه من طبقة اجتماعية إلى أخرى فيقول: "يتناول العرب طعامهم ثلاث مرات في اليوم في الصباح الفطور وهو عبارة عن خبز وقهوة أو خبز وقهوة أو خبز وعسل، في منتصف النهار الغذاء ويتكون عند الفقراء من سميد الذرة مع الزيت والخبز المقلي وعند الأغنياء من غذاء فاخر وفي المساء بعد مغيب الشمس فيحضر العشاء وهو عند الفقراء عبارة عن تكرار للفطور والغداء وعند الأغنياء الطعام الرئيسي لليوم"³.

¹ - المصدر السابق، ص66

² - المصدر نفسه، 47

³ - المصدر السابق، ص261

أما عن الأواني المطبخية فهي تتحدر من مورثهم وعاداتهم القديمة، والتي تجمع بين الرقي الشكل وبساطة الاستخدام: "احتفظ العرب بعاداتهم التي تدل على تحدرهم من قبائل الرحل، فيما يتعلق بآداب المائدة واستعمال أدوات المطبخ البسيطة والمتينة"¹.

استطاع الرحالة الاندماج ببساطة مع المجتمع اليمني ما ساعده في رصد مختلف الصور الجانية لحياة الناس اليومية، وفي المناسبات الخاصة والاحتفالات.

• الموسيقى والرقص :

أكد الرحالة في كثير من المواضع على حب اليمنيين للموسيقى ككل الشرقيين

فيقول: "ويكرس العرب أيضا وقتهم للموسيقى ويصحبون الأناشيد الدينية بآلاتهم وذلك في أماكن خاصة"².

أما عن الغناء العربي فقد بدا لعين الرحالة انه موحش ومزعج يصم الأذن على عكس الغناء الأوروبي العذب، حيث قال: "وغناء العالمة رتيب وحاد بشكل عام والصوت ليس متناغما وعذبا كغناء مغنياتنا، أما الرجال فصوتهم جميل ورخم إلا أنهم يحبون الغناء الحاد"³.

وفي موقع آخر يوازن بين الرقص الشرقي والرقص الأوروبي مبينا إن هذا الأخير يتميز بالاحترافية والتنظيم عل عكس الرقص الشرقي الذي ما هو إلا حركات عشوائية لا فائدة منها سوى لفت النظر... فيقول: "لا يوجد أي شبه بين الرقص الشرقي والأوروبي فالرقص الأوروبي يتبع إيقاعا معيناً ويحتاج تمارين كثيرة وحركات أرجل معينة وقفزات منتظمة أما عند العرب أو في إي بلد شرقي فالرقص تتابع حركات وانحناءات لا غاية منها"⁴.

¹ - المصدر نفسه، ص 263

² - المصدر نفسه، ص 275

³ - المصدر نفسه، ص 275

⁴ - المصدر نفسه، ص 260

سابعاً: أفكار مسبقة، أحكام مغلوطة :

إن القارئ المتأنى لنص رحلة مانزوني يرى انه ليس كل ما جاء في كتابه عن الصنعانيين ايجابيا ومنصفا، فقد ذكر أمور رأى أنها غير منطقية وغريبة، وهي نابعة من أفكار مسبقة له هو ورحالة آخرون حول الشعوب الشرقية .

فمثلا يصف الطبقة العامة من العرب بالانقياد والذل للطبقة الحاكمة فيقول: "يوجد في اليمن طبقتان لم تختلط ببعضها على الإطلاق، وهما مازالتا قائمتين حتى اليوم: الأولى هي التي تملك القوة والثانية التي قدر لها أن تكون تابعة، وتخضع للاهانة وتبعاتها وثقالها وهي العربية"¹.

وفي موضع آخر يصف الخضوع التي تفرضه الطبقة الاجتماعية مستشهدا بشكل التحية العربية، فيقول: "عندما يلتقي شخص بأخر يقوم الأكبر بوضع يمينه على صدره ويقوم الأصغر بالانحناء حتى الأرض واضعا إياها على جبينه أما في حال وجود شخصية مهمة فيقوم الأقل شانا بالانحناء حتى الأرض مادا يديه إلى الأمام ثم إلى صدره ثم إلى فمه ثم رأسه"².

ويظهر حكمه النمطي وتعميمه على من يلتقيهم إذ يقول: "لقد رأيت في اليمن رجال ونساء في منتهى الدمامة"³.

وفي إحدى زيارته طلب منه سكان منطقة في الحوطة معالجة المرضى بحكم خبرته فاعتبروه طبيبا، وكان تفسيره تعميما على جميع البلاد العربية بأنهم يعتقدون أن الأوروبي المتعلم ملم بكل شيء وأن العربي سطحي المعرفة وجاهل يعتقد أن جميع المعارف الإنسانية في كتاب واحد... فيقول: "في البلاد الإسلامية يعتقدون ان الأوروبي إذا كان يعرف القراءة والكتابة يعرف كل شيء، ولكن العربي بسيط يعتقد أن كل شيء موجود في كتاب واحد إذا قرأه عرف كل الأمور لذلك كنت بالنسبة لهم أيضا طبيبا اعرف فن الطب"⁴.

¹ - المصدر السابق، ص 228

² - المصدر نفسه، ص 245

³ - المصدر نفسه، ص 76

⁴ - المصدر نفسه، ص 89

كما يعطينا فكرة عن المعتقدات السائدة في الثقافة الأوروبية حول العالم الإسلامي والتي تبين له أنها خاطئة: "رمضان أو رمضان كما يلفظه الأتراك ليس كما يعتقد عندنا بشكل خاطئ انه شهر المباحات عند المسلمين بل على العكس هو صيام صارم يفرض على كل مسلم ومسلمة بلغ الرابعة عشر القيام به"¹.

وعلى الرغم من هذه الأفكار المسبقة والصور المغلوطة يبقى مانزوني من أشهر الرحالة الذين زاروا اليمن وارتبط اسمه بها وحاول إعطاء صور حقيقية وإحداث يومية ممتعة صادفته أثناء سير رحلته

أخيراً؛ يمكننا القول أن صورة الشرق في هذا الجزء من العالم اليمن لم تكن كسابقتها من الكتابات التي حصرت الشرق في المتخيل الغربي لمؤلف ألف ليلة وليلة، بل ابتعدت عن التهكم والسخرية وعبرت عن صورة منفتحة وب عاطفة صادقة، ناقلا لنا كل ما رآه بعين الشاهد الدقيق بصيغة تقريرية إعلامية، وبصورة موضوعية بعيدة عن كل تفكير ايديولوجي ونظرة سياسية، معبرا عن عالم شرقي ينبض بالحياة وعن إنسان شرقي كريم متسامح مع الآخر عبر مختلف طبقات المجتمع، ناقلا إيانا من أجواء الطبيعة ومصورا لنا عراقة العمران الصناعي عبر أثاره وواصفا تفاصيل البناء، كما خص بالذكر المرأة العربية والتي احتلت مكانة هامة في صفات الرحلات الغربية، وما يلفت النظر في رحلته هو غياب صورة المرأة الشرقية الراقصة الشهوانية، وإحلالها بالمرأة العربية الجميلة والمحتشمة.

¹ - المصدر السابق، ص 49

الخاتمة

خاتمة :

من خلال دراستنا لنص رحلة مانزوني اليمين رحلة إلى صنعاء توصلت إلى جملة من النتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

تساهم دراسة صورة شعب في أدب شعب آخر في الكشف عن الموروث الثقافي الذي رسمه لكاتب في مخيلة شعبه، وكذا معرفة أسباب تشكل الصور في الوعي الجمعي.

إن نظرة الرحالة الايطالي إلى الشرق العربي مكانا وإنسانا كانت نظرة ايجابية تخلو من أي نظرة عنصرية وبعيدة كل البعد عن كل فكر استعلائي ايديولوجي، كما تقترب من الواقع العربي المعاش وتبتعد عن الحكم المسبق والنمطية الغربية .

كما تخلو الرحلة من غرابة الشرق ومخيال الليالي العربية التي لطالما كرس لها الرحلات الغربية .

عمل الرحالة على رصد أهم ملامح الثقافة الجديدة، وأهم المكونات السوسولوجية الشرقية، فقد أعجب بالطبيعة اليمنية وعمل على توثيق كل ما صادفه، غير أن وصفه جاء جامد وخالي من الحيوية والمتعة الذهنية .

كما أن للمكان حضور قوي في رحلة مانزوني ولا عجب في هذا فالرحلة أساسا انتقال من مكان إلى آخر، ومن بين الأمكنة التي أعجب بها الرحالة هي مدينة صنعاء والتي كانت السبب في قيامه بالرحلة غير انه في كثير من الأحيان ما يستحضر لنا صورا من أناقة ورقي العمران الأوروبي .

من بين الأماكن التي نالت نصيبا وافيا من وصف الرحالة هي الحمام الشرقي بعراقته وخدماته التي تعطي راحة كبيرة للإنسان بغض النظر على النظافة .

أما بالنسبة للإنسان الشرقي، فالرحلة لم يبد أي مشاعر بالنسبة له، بل عبر عن صفاته الجسدية والحسية، بعيدا عن دوره في المجتمع، وبمنظرة سطحية متجنباً أي حكم، إلا انه كان

يذكر الخصال النبيلة للعربي .

كما نالت المرأة الشرقية نصيبا وافيا من وصف الرحالة، فقد أعجب بها وبجمالها، مفرقا بين نساء المدينة ونساء البادية من ناحية الصفات الروحية والجسدية.

والملاحظ في نص مانزوني هو خلوه من النظرة السياسية لوضع البلاد، فالفترة التي رحل فيها مانزوني كانت ما بين 1871-1872م وهي فترة الوصاية التركية على اليمن .

تعامل مانزوني مع الدين الإسلامي بعاطفة متسامحة، ولم يبذ إبي نفور منه بل على العكس فقد اعترف بفضل الدين على الثقافة والحضارة ، وأورد انه من الخاطئ إرجاع المشاكل الاجتماعية إلى الدين.

كما أعجب لرحالة بالأجواء الدينية العربية والتي لم يألف مثلها في بلاده، فقد كان لشهر رمضان وأجوائه الوقع الكبير على نفسيته ما عكسه على صفحات رحلته.

غير أن نص الرحلة لا يخلو من الصور النمطية، فليس كل ما جاء فيه منصف للشرق والشرقيين حيث أورد فيه مجموعة ملاحظات رأى أنها غير منطقية وغريبة وهي تابعة من الذاكرة الجمعية التي كرس لها غيره من الكتاب الغربيين.

وأهم ملاحظة في أسلوب الرحلة هي غلبة الوصف على باقي الأساليب الرحلية، إلا أن وصفه جاء جامدا يخلو من الصبغة الأدبية والحيوية، و لا عجب فالرحالة أساسا جغرافي يتعامل بنظرة علمية وعاطفة صامتة .

وأخيرا يبقى الموضوع مفتوح ومحل دراسة للعديد من المناهج والآليات .

الملحق

ملخص الرحلة:

يتناول هذا الكتاب رحلة للايطالي رينز ومانزوني إلي اليمن في الربع الثالث من القرن التاسع عشر الميلادي، وهي جزء من أساس ثلاث رحلات .

اختر مانزوني تكوين اسم وشهرة له عبر الوصول إلى مناطق مختلفة ودراسة مفاهيم وأعراق أصقاع الأرض وشعوبها، وفي عام 1884م اصدر كتابه الضخم الذي تحدث فيه عن اليمن (اليمن ثلاث سنوات في العربية السعيدة).

تتطلق رحلته من عدن لعتبر حردبة، فلبدة الجليلة وقعطبة، ثم وادي بنا حتى السدة، مارا بحبال اليمن وأوديته إلي زمار، وأخيرا صنعاء، تدوم رحلته ثمانية أشهر تقريبا من سبتمبر 1877-حتى يونيو 1878.

كرس الرحالة لهذا الكتاب خمسة عشر فصلا قدم فيه شرحا حقيقيا ودقيق للحياة الاجتماعية اليمنية وثقافتها وتنوع طبقاتها كما اهتم بالجغرافية وعلم الأعراق العمران ومختلف مظاهر الحياة العربية، درس اللغة العربية وهذا ما أعطى كتابه مصداقية ودقة.

اتخذ مانزوني دور المؤرخ في كتاباته فهي في بعض الأحيان تخلو من الحيوية وكأنها تقارير في كثير من الأحيان ما تحتجب تحت غطاء الحماسة والشغف غير أن هدفه الرئيسي هو تسجيل الوقائع فقط.

رينزو مانزوني 1852-1918:

رينزو مانزوني هو ابن بيترو الابن الثالث للأديب الشهير اليساندو مانزوني، ولد مدينة البندقية بإيطاليا سنة 1852م، في عائلة مرموقة حفيد احد عظماء الأدب الايطالي.

كان رينزو في الحادية والعشرين عندما توفي والده و تربي في كنف جده اليساندرو، ولقد أبدى في سن مبكرة شخصية مميزة نبذت تقاليد التي أملتتها تعاليم الجد وثقافة الأب الواسعة، كان يفكر بعالم بعيد و جذبته المغامرة لاكتشاف كل ما هو غريب وجديد، وبعدها نمت فيه عزم السفر من خلال قرأته للكتب في مكتبة العائلة فسافر أول مرة للمغرب مع بعثة ايطالية رسمية مكث فيها هناك مدة سنة كاملة ولدت خلالها فكرة السفر إلى اليمن موضوع للكتاب الذي بين أيدينا الذي أصدره عام 1844م .

كان رينزو خبيرا في عدة ميادين الجغرافية علم النبات وعلوم الشعوب وأتقن اللغة العربية و فن الرسم ولتصوير ورسم الخرائط ما جعل رحلته تتلون بألوان حقول مختلفة (جغرافيا، علم الأعراق، عمران...) والذي شاءت الأقدار أن يكون كتابه الوحيد.

اتخذ مانزوني دور المؤرخ في كتاباته فهي في بعض الأحيان تخلو من الحيوية و في أحيان أخرى تبدو مجرد تقارير.

توفي في مدينة روما في 17 ماي 1918م نتيجة أمراض متعددة .

قائمة

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم:

المصادر:

1-رينزو مانزوني، اليمن رحلة إلى صنعاء، تر: شرين ابش، تحقق:احمد ايبش، ط1، هيئة ابوظبي للسياحة والثقافة، ابوظبي، الإمارات، 2012، ص110

المراجع العربية:

1. إبراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار السافي، بيروت، ط1، 1997.

2. إبراهيم الحيدري، صورة الشرق في عيون الغرب، دار السافي، بيروت، ط2 1997.

3. احمد حامد، الإسلام ورسوله في فكر هؤلاء، مطبوعات وكالة الشعب، القاهرة، ط1 دت.

4. احمد رمضان احمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي للنشر، جدة، ط1، دت.

5. جمال الدين فالح الكيلاني، الرحلات والرحلة في التاريخ الإسلامي دراسة تاريخية، دار الزنبقة للطباعة والنشر، القاهرة، 2014.

6. حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1983.

7. حسين، محمد فهيم، أدب الرحلات، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ط1، 1989.

8. سعيد يقطين، السرد العربي مفاهيم وتجليات، الدار العربية للعلوم ناشرون، الرباط، ط 1، 2012.
9. سليمان العطار، الخيال عند ابن عربي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ط 1، 1991،،
10. سيد حامد النساج، مشوار كتب الرحلة قديما وحديثا، مكتبة غريب للنشر، الإسكندرية، ط 2، دت.
11. شوقي ضيف، الرحلات، دار المعارف للنشر والتوزيع، ط 4، القاهرة.
12. الطاهر احمد مكي، الأدب المقارن أصوله وتطوره ومناهجه، دار المعارف للنشر، القاهرة، ط 1، 1987 .
13. طه نداء، الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، ط 1، 1991.
14. عبد الواحد ذنون طه، الرحلات المتبادلة بين الغرب الإسلامي والمشرق، دار المدار بيروت، ط 1، 2004، ص 14.
15. على إبراهيم كردي أدب الرحل في المغرب والأندلس، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق، 2013.
16. عواطف محمد يوسف النواب، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط 1، 1997.
17. فؤاد قنديل، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، القاهرة ط 2.
18. كمال عبد الملك، صورة أوروبا في الأدب الحديث، مدارك للنشر والتوزيع، بيروت، ط 1
19. ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ط 1، 2000.

20. محمد زكي عشاوي، دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن، دار الشروق، القاهرة، ط 1، 1999.
21. ناصر عبد الرزاق الموافي، الرحلة في الأدب العربي، دار النشر للجامعات المصرية، مصر، القاهرة، ط1، 1995
22. نوال عبد الرحمن الشوابكة، أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن 19 الهجري، دار المأمون للنشر والتوزيع، عمان،، 2008.

المراجع الاجنبية :

- Naim Rachid, l'arabes aux yeux de l'orientalisme littéraire, interfrancophonies Num3, 2010, figures de l'étranger dans la francophone .

مراجع مترجمة :

23. ادوارد سعيد، الاستشراق المفاهيم الغربية للشرق، تر محمد العناني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2006.
24. بيير جودا الرحلة إلى الشرق تر مي عبد الكريم الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع سوريا ط2، 2000 .
25. دانييل هنري باجو، الادب العام والمقارن، تر: غسان السيد، دار اتحاد كتاب العرب، دمشق، 1997، ط1.
26. شانتوبريان، الطريق من باريس الى القدس، تر: مي عبد الكريم، دار المدى للثقافة والنشر، سورية، ط1، 2008.

معاجم الموسوعات :

27. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح :عبد السلام هارون، ج2 دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1987.

28. ابن منظور، لسان العرب، ج5، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 2000،
29. ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، ج7، بيروت، لبنان، ط3،
1999، ص438
30. إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في اللغة والأدب، مج1، دار العالم للملايين،
بيروت، ط1.
31. مجدي وهبة، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان للنشر،
بيروت، ط.1954.

مجلات ودوريات :

32. زهرة مزوني، دراسة الصورة في الادب المقارن، مجلة الباحث، العدد16، 2007،
المدرسة العليا بوزريعة مبارك ابراهيم ميلي، الجزائر
33. ناجي نجيب، الرحلة إلى الغرب والرحلة إلى الشرق، مجلة الفكر العربي، العدد32
ابريل، 1983، معهد الإنماء العربي، بيروت
34. نبيل راغب، أدب الرحلات، مجلة الفيصل، العدد88، يوليو، 1984، دار الفيصل
الثقافية، الرياض، السعودية.

المواقع الالكترونية :

1-<http://mahomet.over-blog.com/2015/03/l-islam-commente-par-les-grands-penseurs.html>.

فهرس المحتويات

الصفحة	المحتويات
أ ب ج	مقدمة
المدخل: علم الصور في الادب المقارن	
7	علم الصورة بين المصطلح و المفهوم
6	أولاً: مفهوم الصورة
6	- لغة:
7	اصطلاحاً
8	ثانياً: علم دراسة الصورة - الصوراتية -
8	النشأة
9	ثالثاً: أنواع الصورة في الادب المقارن
9	الصورة السلبية
10	الصورة الايجابية
11	رابعاً: مصادر تشكيل الصورة
11	1.الكتب
12	2.الرحلة
14	خامساً: عناصر تشكيل الصورة الادبية عن الاخر
الفصل الاول : في أدب الرحلة ونتاج الصورة	
19	أولاً: أدب الرحلة بين المصطلح والمفهوم
19	1-لغة
19	2-اصطلاحاً
21	ثانياً الرحلة والادب

- 22 ثالثا: أدب الرحلات في التراث العربي والغربي
- 22 ادب الرحلة في التراث العربي
- 29 ادب الرحلة في التراث الغربي
- 35 رابعا: تجليات صورة الشرق في الرحلات الغربية .

الفصل الثاني: صورة الشرق في رحلة اليمن رحلة الى صنعاء ل : رينزو مانزوني

- 40 تمهيد
- 41 أولا: صورة الطبيعة بين الايجاب والسلب
- 43 ثانيا: صورة الاماكن والعمران
- 47 ثالثا: صورة الانسان
- 53 رابعا: صورة العبادات، المعتقدات
- 56 خامسا: منظومة القيم العربية
- 58 سادسا: صور متفرقة من الحياة اليومية
- 60 سابعا: افكار مسبقة، أحكام مغلوبة
- 63 خاتمة
- 66 الملحق
- 69 قائمة المصادر والمراجع
- فهرس المحتويات
- ملخص

ملخص :

تناولت في هذه الدراسة المعنونة **صورة الشرق اليمن ، رحلة إلى الصنعاء أنموذجاً** صورة الشرق العربي في الأدب الايطالي مركزة على أهم المحطات التي صورها الرحالة في هذه الرحلة محاولة الكشف عن التصور الغربي لعالم الشرق.

تضمن العمل مقدمة كتمهيد للموضوع، ومدخل تناولت فيه عناوين عامة عن علم الصورة في الأدب المقارن، أما الفصل الأول درست فيه الأدب الرحلي المفهوم والنشأة في الأدبين العربي والغربي مع مجموعة من الأعلام .

أما الفصل الثاني تطبيقي، وهو أساس البحث خصصته لصورة الشرق والشرقي في **كتاب اليمن رحلة إلى صنعاء**.

أخيراً خاتمة تضمنت حوصلة عامة ونتيجة ونهاية للبحث محاولة الإجابة عن أهم إشكاليات الموضوع .

Résumé:

Dans cette étude, intitulée **L'image de l'Est, Yémen, un voyage à Sana'a**, j'ai traité d'un modèle de l'Orient arabe dans la littérature italienne, en me concentrant sur les stations les plus importantes que les voyageurs ont photographiées lors de ce voyage, essayant de révéler la perception occidentale du monde de l'Orient.

L'ouvrage comprenait une introduction en guise d'introduction au sujet et une introduction dans laquelle étaient traités des rubriques générales sur la science de l'image dans la littérature comparée. Le premier chapitre examinait le concept de littérature nomade et son émergence dans la littérature arabe et occidentale avec un groupe de notables.

Quant au deuxième chapitre, il est appliqué, et il est la base de la recherche que j'ai consacrée à l'image de l'Est et de l'Est dans le livre **Yémen: un voyage à Sanaa**.

Enfin, une conclusion qui comprenait un résultat général, un résultat et une dernière tentative pour répondre aux problèmes les plus importants du sujet.